الكاتب د. علي مكيه

أحببتك في دمشق

رواية

أحببتكِ في دمشق

الإهداء

(إلى كل نساء العالم، على استثناء ماريَّة)

علي مكيه

أحببتكِ في دمشق

الطبعة الأولى كانون الثاني / 2021

All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة لأصحابها.

أحببتكِ في دمشق

د. علي مكيه

.

المقدمة

هذه أكثرُ الصفحاتِ إهمالاً،
هكذا اعتادتْ المقدماتُ أن تكونَ في كتبنا العربيّةِ على اختلافِ أنواعها، ولا أعرفُ لماذا، لذلك سيلعبُ الجزءُ الأول دورَ المقدمةِ الحقيقيّةِ ل "أحببتكِ في دمشق"، بالإضافةِ لدورِه الأصليّ كأحدِ أجزاءِ القصة،

إنما أتيتُ إلى هنا لأرجوَكَ ألا تشتُمني عندما تنتهي من قراءة الصّفحةِ الأخيرة، فبعضُ الأمورِ ستبقى غامضةً، تُرِكَت عمداً لأنّ توضيحَها يختلفُ تبعاً للزمانِ والمكانِ والأشخاص، فانظرْ في محيطِكَ جيداً أو في ماضيك مثلاً، لا بدّ أن تكونَ قد مررتَ في موقفٍ مشابهٍ بشخصك أو بإحدى صفاتك...

الكاتب..

اقلب الصفحة وابدأ برحلتك مع "أحببتكِ في دمشق"

(١)

من ذاكرةِ الماضي اخرجي وضعيني قلادةً بين نَهْدَيْكِ وارقُصي، فمنَ الحُبِّ ما أبْكى، منَ الحُبِّ ما أدْمى، من الحُبّ ما دَنَّس، ومن الحب ما أخْرَس..

ميّار

وتَستوي على عرشِ الياسَمين.. كما تَستوي السماءُ حين يَغيبُ القمر، تَتَدَلَّلُ مثل الوردِ وأكثر، تَسْلُكُ طريقَ الندى، ثم نَلتقي عندما نفترق.. ونفترقُ عندما نلتقي..

وبين كأسين سوداوين ودُخان، اتفقنا أن نهربَ معاً، سعياً خلفَ الحنان، بَعد أن نُنهي عَدَّ النجوم، ثم جلسْنا في ثنايا الصّمتِ نُحَضّرُ أثوابَ الهروب.. وراحتْ النجوم في ظلِّ صمتنا تتكاثر...

كانتْ ترقصُ حافيةَ على أنينِ عينيها، كأنَّ أُنوثتها بين كفيْ الحُلُمْ.. وتخافُ سَرِقة القدر لهُ أو لها، ولا أدري مَنْ مِنْ رَقصها وأنينِها فجَّرَ الآخر...

تلثمُ الوردَ، ويَشُمُّها مُغازلةً، وفي مشهدٍ أندلسي الصُنْعُ.. يَسألُها السماحُ.. ليَستريحَ على صَدرِها قليلاً.. ليَتَّحِدّ بهِ وبِها.. لَعَلَّه يولَدُ مُجدداً..

ومشينا نحنُ الاثنينِ معاً على حبّ وساق.. مشينا نحن الاثنينِ معاً إلى ذكرى حبٍّ وساق، دون أن نُدرك أنَّ أعيننا فَضَحَتْنا أمامَ كلِّ ما ومَنْ شَهِدَ مُرورَنا أو مَرارَنا..

وكُنا نتسابقُ في الرّكضِ وراء مَنْ مِنّا سيُسعدُ الآخرَ أكثر، على حافَّة العمر ركَضَ نبضُ قلبينا، وتحت ظلٍ صباحيٍ ركضَتْ لَهفةُ أَيْسَرَيْنا، وكانَ الركضُ كلُّهُ إلى المأساة..

كان المساءُ يطلبُ نجدةَ أنوثتِها، كانَ القمرُ ينظرُ بحسدٍ إلى شُرْفةٍ تقفُ خلفَها، كانت الشمسُ تعتذرُ كلّما أشرقتْ من ابتسامَتِها، وكان الغسقُ يُلقي الشعرَ كلَّ يومٍ على مسامِعها..

وعلى وجهِ الزمانِ كتبنا أمنيةً ودعَونا السّماءَ كثيراً، رجَونا الأيامَ ألّا تنتهي، كُنا نتساءَلُ دائماً لماذا يمرُّ الوقتُ مسرعاً ليفرَّقنا كلَّما التقينا، وعلى وجوهِنا وشَمَ الزمانُ بالّلا إجابة..

وكُنّا عندما تُقبّلُ أعيُنُنا بعضَها، ننسى.. كأنَّ الزهايمرَ الكبيرَ يُداعِبنا.. ويقضُمُ ذاكرَتنا، وذكرياتِنا، حُزنَنا أحياناً، وآلامَنا، وتحْتَضرُ أيامُنا الماضيةُ في ملكوتِ الحاضر..

كانت امرأةً شرقيةً جداً، يُحبُّها كلُّ مكانٍ يَحظى بشيءٍ من حَضْرتها، في حضورِ وجنتيها تخجلُ الطبيعة، وترتدي ثوب الخَفَر..

كُنّا نمضي ولا نذكرُ إلى أينَ نمضي أو لا نهتم، كُنّا نمضي ولا نعرفُ إلى أينَ نمضي ولا نهتم، كُنّا نمضي ونمضي ونمضي... ولا نُدركُ حتى اليومِ كيفَ مَضيْنا أو لماذا!؟

كُنّا وعلى نقيضِ العادةِ، نرتدي الجنونَ، ونركبُ الجنونَ، نتمنى.. ونُسجّلُ الأمنياتِ بصمتٍ، ثمّ نغمضُ أعينَنا..

وظنّاً مِنّا أنَّ ذاكَ الظلامَ سيَختفي، صَحَوْنا في الصباحِ مُبتسمَينْ كأنّنا كُنّا في رحلةٍ فضائيةِ المدى..

كان الحُزنُ يضعُنا في عنايتهِ المشدَّدة ونمضي، كان الوجعُ يزورُنا بهداياهُ كلّ ليلةٍ ويمضي، كُنّا نأْكلُ الآهاتِ في وجباتِنا كلّ يومٍ ونمضي، ثم يرتمي رأسُ كلٍّ منّا على صدرِ الآخرِ في معركةٍ عنيفةٍ بين وجعِ الحياة وسيادةِ الحبّ..

كانت امرأةً ساديةَ الحاجبينِ رُغمَ براءتِها، كانت امرأةً عنيفةَ الحضورِ رُغمَ حنانِها، فمُها كالجلّادِ، وعينُها الغجريةُ كالسفاحِ، وفيها من السحرِ ما فينا من اللّحمِ والماء..

آنذاكَ، كانت تمشي على الوردِ حافيةً أيضاً، وكان الوردُ يرتدي نداهُ ويتسلَّقُها، في ظلّ فشلِ الفلاسفة في التفريقِ بينهما...

بينَ الجدرانِ العتيقةِ كُنّا، في الهدوءِ والنارِ كُنّا، نَتَشَبَّثُ بالدُّخانِ كُنّا، نَتَمَسَّكُ بالرّيحِ كُنّا، في الساعةِ الخامسةِ بعدَ العشرينَ كُنّا، في اليوم الثّاني والثلاثينَ كُنّا، ثم عرفنا أنَّنا كُنّا في المستحيل...

كنتُ أنظرُ إليها بعينٍ تشعُّ محبة.. وكانت تنظرُ اليّ بعينٍ كلُّها إغراء، فأسألُها الرأفةَ بقلبٍ وجسدٍ ودمٍ لا يعرفون صبرَ الصّمود، والمستحيلُ كان حيث كُنّا..

كانت النهودُ ترقصُ أمامي، تنقلُ الاعترافَ بالحبِّ، وكنت بدوري أعترفُ ألّا شيءَ هزمَني كما النهود..

كانَ لوجودِها أثرُ الطمأنينةِ والهدوءِ.. مثلَ العبودية، مثلَ كتابٍ مقدس، مثلَ الشمسِ في الشتاء، وكذلك ضوءِ القمرِ في ليلٍ ماطرٍ ريحُه جارفة..

وفي مشهدٍ مُحاكٍ بشرقيةٍ عظيمةٍ تحترفهُ كلُّ امرأةٍ عرفَتْ الشرق، كانَ عليَّ أنْ أزرعَ قبلةً على خدِّها ليغزوَ دَمُها وَجَهَها بغزارةٍ، ويُضفي عليه رونقُ الخجلِ الخمريّ..

هناكَ في الشرق، ينصبُّ الاهتمامُ على ما قيلَ أو يُقال، ليس على صدقِ القائلِ أو حقيقةِ المُتحدَّث عنه، ونتيجةُ ذلكَ كانت؛ تصدُّعَ كلِّ شيءٍ بنا، ثمّ التِواؤُه ثمّ انكسارُه ونهايتُنا..

في الوداعِ كُنّا نجلسُ ببرودٍ فاضحٍ، كأنّنا نرفضُ انتهاءَ اللّقاء.. ونتظاهرُ بعبثيةِ الإرهاقِ.. أملاً بألّا نفترقَ، في الوداع كانَ كأسُها يناجيني بأن أمدّ لهُ مدّة المتعةِ بشفتيها..

وكانَ الدُّخانُ يُطالبني بأن أتركُها تُولِّد المزيدَ منه، في الوداع كنتُ أتمنّى أنْ يُحدّثَني شيخٌ أو قدّيسٌ ويُحرِّمَ عليَّ الوداعَ، لكنَّ أمنيتي لم تتحقَّق..

وعندما خرجْنا، كُنّا في سربٍ بشريٍ غريب، لا أدري من مِنّا كانَ غريباً نحنُ أم هُمْ، لكن رُغمَ ذلكَ تأمَّلنا ألّا ينتهيَ النهارُ.. ألّا ينتهيَ الحُلم.. ألّا ينتهيَ الطريق..

برئةٍ واحدةٍ كانَ يمكنُنا أن نستمرَّ على قيدِ بعضِنا، بعينٍ واحدةٍ كانَ يمكنُنا أن نرى كلَّ شيء، بأنفٍ واحدٍ كانَ يمكنُنا أن نَلْقُطَ الأنفاسَ، على قلبٍ واحدٍ كُنّا، بكبدٍ واحدٍ كانَ يمكنُ لأجسادِنا أنْ تحيا..

عندما يلوجُ بكَ الحُبُّ، يَمْزِجُ أجزائكَ بِبَعْضِكَ مسيّراً إيّاها على خطواتٍ يَختارُها الفؤادُ، كلُّ ما فيكَ يَعتبرُ أنَّ الدماغ قد أصبحَ خارجَ نِطاقَ السيطرة..

وهي عندما تلفُظُ اللفظَ مُذهلة، عندما تدورُ بعينيها مُذهلة، عندما يُدَنْدِنُ خصرُها أثناءَ المشي مُذهلة، في جلوسِها مُذهلة، وفي وقوفِها مُذهلة، وإذا ضَحِكَتْ تعُمُّ الفتنةُ كلَّ شيء.

كوني لأجلي عروساً، كلّ ليلةٍ، واترُكي موسيقى البيانو تُؤلّفُكِ، اتركي القصائدَ تتساءلُ عنكِ، تجمَّلي.. تدلَّعي.. واستحمّي لينتعشَ الماء..

كوني لأجلي مُنقذةً، كلّ ليلة، واتركي الحريرَ يَلْفُظُكِ، اترُكي الرُكْنَ يَرتعدُ بكِ تعطُّري.. تمدَّدي.. وتخيَّلي لِيَحيا الخيال..

كوني لأجلي قدراً، كوني وطناً، كلَّ ليلة، واترُكي الشعب يَصْنَعُكِ، اترُكي الأبجديةَ تُخَلّدُكِ، تأنّقي.. تحرّري.. واستحمّي أيضاً لتحظى المناشفُ ببعضِ وقتِ نهديكِ..

كوني لأجلي مُجرمةً، كلّ ليلة، فأنا أهوى حضرةَ المُجرماتْ، واترُكي الليلَ يَرْحَلُكِ.. ارقُصي.. تتدلّلي.. وفكّري لتعيشَ الفكرة أكثر.

كنت أتمنّى أن تُنقذني كلّ ليلة، من الألمِ، من الضيقِ، من صدقِ الواقعِ الحياتيّ الذي كانَ يرافقُني آنذاك، لكنّ الليلَ -وباستثناءِ ليلٍ واحدٍ فقط- كانَ دائماً يُفَرّقُنا، وكانت على الضفّةِ الأخرى من الأمنية، تنتظرُني لأُحقّقَ أمنيتي في مشهدٍ غريبٍ جداً..

وفي نهرِ الأماني كتبتُ على ورقة: أتمنّى لو أنّني أُنثى! فضَحِكَ عليَّ قلمي، ابتسمتْ أوراقي، استرخى المحيطُ بأكملهِ، تفاجَأتْ ملابسي.. وغارَ القَمَر..

تمنيتُ أمنيَتي كي لا أفارقَها، كي لا أُجْبَرَ على الرّحيلِ عنها، كي أبقى في مكانِها أدلّلُها، أوثّقها، كي أنظُر إليها طويلاً بلا ذنب فنظرةٌ واحدةٌ لا تكفي لأُسكِتَ عينيَّ، كي أشمّ عطورَها واحداً واحداً، وأشْتُمَ معها الرجالَ، كي نبكيَ معاً بدون وعْيِنا.. وننامَ في غرفةٍ واحدةٍ دونَ لوم.. وتهزّني هزَّةَ الإيقاظِ غاضبةً لأنّي تَزَيَّنْتُ بزينَتِها ولم أرتبْها بعد ذلك.

على الطريقةِ الفرنسية قَبّلْ يَدَها، كأنّكَ الطِفْلُ المُمْتَنُّ لحليبِ أمّهِ وسخاءِ أبيه، كأنّكَ تحملُ على كفّيكَ النّدى، كأنّكَ تَقْبِضُ بيدَيك على الرّيح، كأنّكَ تحاكمُ النجومَ وترفعُ دَعْوَى خُلْعٍ على البدر، كأنّكَ ترسمُ وتكتبُ التاريخَ على الهواء..

فهي باللُّغةِ المكتوبة أجمل، هي بعدَ الخبزِ أجمل، هي ذاكَ الوشمُ الخافِتُ اللَّونِ على وَجْهِ القَمَر.. تارةً في المَيْمَنَةِ وتارةً في المَيْسَرَة..

بجانبي جلسَتْ، كانتْ تُخفي عنّي غُصَّتها، وبدوري جلسْتُ أُخفي عنها حسرَتي، ونبكي بالضّحك من ألمِ الأيّام..

كأنّ عينَيها تقولُ لي: أرجوكَ شارِكْني الألم، لم أعدْ قادرةً وحدي عليه، أرجوكَ ادخُلْ لقلبيَ المُنقبضِ ووَسّعْ أجوافه قليلاً، لأبقى على قيدِ الصِّراع..

وبدوري قلتُ لها: لو أنّ للقلبِ شفاهاً لَما فَتِئَ يُرَتِّلُكِ، لو أنّ للقلبِ عيوناً لَما ملَّ يُبْصِرُكِ.. لو أنّ للقلبِ أياديَ لما قَبِلَ مِنْها مُغادرةَ شَعْرِكِ..

من ذاكرةِ الماضي اخرجي وضعيني قلادةً بين نَهْدَيْكِ وارقُصي، فمنَ الحُبّ ما أبْكى، منَ الحُبّ ما أدْمى، من الحُبّ ما دَنَّس، ومن الحب ما أخْرَس.

كانت أنثى تعادلُ الأرضَ بجاذبيتِها، وكانَ عطرُها ينصبُّ على قلبي، مثلما الخمرُ يدخُلُ الحشى ويعبثُ بها..

هُناكَ في الشّرقِ، لا شيءَ يُبكي المرأةَ أكثرَ من حُبٍّ أجْرَمَ في صدرِها، وأدْخلَ قلبَها طَوْرَ الاحتضار، واستثنى الصعودَ الأخيرَ إلى السّماءِ في حركةِ الموت..

كنتُ أجْلِسُ على رصيفِ الدُنيا أتسوَّلُ الحنانَ، ولازلتُ أحتاجُ ذاكَ الجلوسَ، وكانتْ غَنيةُ الحنانِ كريمةَ في العطاء، تحظى بالمكانةِ السَّاميةِ بمجردِ النَّظرةِ الأولى..

كانَ ثغْرُها كما عَيْناها، وكانتْ عَيْناها كما ثغرُها، يَتعجرفانِ تارةً، يُعذّبانِ تارةً، يَتحدثانِ تارةً، ويُحاربانِ بالسكاكينِ، يدخلانِ مجرى الدَّم.. يَتوسَّعُ المجرى على تتالي خطواتِهما وينقبضُ بعدها، ثمَّ ببساطةِ شعبٍ فقيرٍ يرحلان..

عندما يَعْتُمُ قلبُكَ من الحُبِّ، تلتحمُ أصابعُ يديكَ مع بعضها البعض، في إشارةٍ إلى تاريخٍ ثقيلِ التَّرِكَة، ولن تسعى إلى حبيب.

الحقيقةُ أنا لمْ أركِ، أنا حَلُمتُ فَقَط، فماذا دَهاهُ؟ حتّى غارَ القمرُ وسَقَطا!؟

أيُّها العازفونَ اعْزِفوا جُزءاً مِنها، واحفظوهُ واحفظوها، كرّروا عَزْفَكُمْ إذا أردتُموهُ أن يكونَ عَزْفاً أسطوريّاً..

أيُّها النسَّاجونَ انْسُجوا ثوباً كجِلْدِها، وألْبِسوهُ لكُلّ امرأةٍ تسعى إلى أن تكونَ أجمل، أو تحب أثواب الهدوء..

أيَها الزَّارعونَ ازْرَعوا أظافِرَها، ازْرَعوا شَعْرَها، ازْرَعوا صَوتَها أو كَعْبَها، واحصدوا ثِماراً مثلَ ثِمارِ الجنّة..

أيُّها الجَرَّاحونَ ارْتَدوا لِباسَكُمُ واستعدّوا، اسْتَبْدِلوا القلوبَ بِها، ليُصبحَ النَّبضُ مُمْتِعاً، ويُضَخَّ الحبُّ في كل الجسد..

أيُّها السُكارى اترُكوا النبيذَ وغادروا مقاعِدَ الحانات، فهي إذا رَمَتْكُمْ بعينيها قاصدةً تُسْكِرَكُمْ أكثر، بَلْ ويَكفي أن يَمُرَّ الساقُ فقطْ.

كانَ عطرُ البنفسجِ يركضُ منّي، لِيَختبئَ في زاويةِ صدرِها الدافئِ كُلَّما لاحَ مُحَيَّاها، وكنتُ عندما أريدُ النَّصرَ أتحاشى النظرَ إلى عينيها..

ومع ذلك فشلتُ جداً، فشلتُ للغاية، فشلتُ بجدارةٍ، بأنْ أحظى بشيءٍ من النّصرِ يوماً، لأترُكَها حُرّةً طليقةً بينَ أفكاري وأحلامي والخيال..

وكانتْ كالعَلَقَة في أوعيتي، ولكنّ النزيفَ كانَ مستمرّاً، كانت في عينيَّ ولكنّ بَصري بَقيَ خفيفاً..

كنتُ أنظرُ إليْها بكلّ شهوةِ الأدبِ لاقتنائها، بكلِّ غرابةِ الفلسفةِ وحبِّها للفلسفة، بكلّ العشقِ الدَّائرِ بينَ الآلةِ الحاسبةِ والأرقام.. كأنّني أجلسُ في الشرقِ الأوسطِ وأنظر إلى الشرقِ الأوْحَدِ الذي لا أعرفُ أينَ يكون..

كُنّا نُحاولُ إنقاذَ رحيلِنا بالغياب، كي لا يصدمَنا ثِقَلُ الغيابْ بعدَ الرحيل، ولأنّنا كُنّا نهابُهما جداً كانا يَحْضُرانِ كثيراً..

آنذاكَ كانَ الهروبُ على عكسِ طبيعتِه، يحتاجُ شجاعةٍ كبيرة، كأَنْ تضعَ السُمَّ في كأسٍ ستشربُهُ بعدَ قليل..

وكنتُ تحتَ ظلِّ صباحيٍّ أنتظرُها، وبدورِها كانتْ تأتي كفتاةٍ صغيرةٍ، تهرولُ نحو قطعةِ شوكولا، أو قطعةِ سعادة..

كنتُ أحبُّها؟ أظنُّ ذلك... لكنّي كنتُ أطاردُها لأخبرَها عمَّنْ سبَقْنَها، عن جمالِهنَّ، عن روعَتِهنَّ، عن حبّهنَّ، عن إيمانِهنَّ، بكلِّ سخافةِ الشّباب، وكانت نفسي تُخيفُني في رأيِها أنَّ الأدوارَ ستتبدّلُ يوماً ما..

كنتُ مُرَوَّعاً ولازلتُ مُرَوَّعاً، أنْ كيف لِشفتيها أنْ تلفُظانِي بهذهِ الطَّريقة، كيف لِنهديها أن يَلِداني كأنَّما عُمري الصفرُ، وأنا المولودُ منذُ زمن..

وكنتُ أذكرُها كما يصيحُ الليلُ في الفجرِ، كما يَلوي الصُبْحُ ضِلْعَهُ وقتَ الغروبْ وكانتْ تُشْرِقُ بعينيها المُدلَّلَتينِ، وتَتْرُكُ المكانَ يَقتني السعادةَ ويُتْقِنُها، كانتْ شيئاً يختصرُ كلّ الأشياء، كما لو أنَّ كلّ الحروفِ تُقالُ في حرفٍ واحد..

أمَّا أنا فأبحثُ عن قلمٍ وقُصاصَةِ ورقٍ وفُسحةٍ صغيرة تَتْرُكُني أَكتُبُها، كنتُ أبحثُ عن الفراش، عن الوسائد، وعن ليلٍ يَتْرُكُني أَحْلُمُها، كنتُ أبحثُ عن أحدٍ يُضيفُني على دين المسيحِ دقيقةً ويَتْرُكُني أقبّلُها..

كنتُ أعيشُ مَخاضَ النِّهاية كثيراً ولا أذكرُ أنَّني انتهيت، وأنجو بصوتٍ وبلا صوت، لا أذكرُ أنَّني نجوت، ولا أعرفُ كيف نجوت..

فالحبُّ هو موتٌ أنيقُ المدى، هو آلةُ القَدَرِ في إغاثةِ البشريَّة.. وعَصْرِها في آنٍ واحد..

لذلك كان لا بدَّ لنا من أن نُغاثَ ونُعصَرَ، كانَ لا بدَّ لنا من أن ندخلَ غيثَنا بجنونٍ ونخرجَ منه مجانيناً، دون أن نملك شيئاً نُدينُ به الهوى وعلى العكسِ كانَ الهوى يملكُ أشياءَ فاخرةً لإدانتنا..

كُنّا عابثَيْن، وكانت امرأةً شرقيةَ الدِّماء، أمامَ رجلٍ نسائيٍ بامتياز في موقفٍ من طرازٍ خاص، ولم يكن بوسع أحدنا إيجادُ المبرِّر.

ما كنتِ مُلكاً لي يوماً وما كنتُ مُلكاً لأحدٍ بعدَك.. مرَّتْ الأيام بي أكتبُ لِنفسي ولِهوايَ، وفي التَّفاصيل بحثتُ عنكِ كثيراً، جرَّبتُ إلقاءَ شِباكي في كلِّ أنحاءِ المدينة، حاولتُ إرسالَ الرسائلِ العابرةِ للقارّات، سألتُ النجومَ عنكِ وأخبرتُهم عن تفاصيلِ وجنتيكِ، وضَعتُ على الجدرانِ صورَكِ، ورغمَ كلّ ذلك فشلتُ جداً في أن أجِدَك..

كنتُ أعودُ إلى وسائدي وحيداً كما القمرُ في غربةِ اللَّيل يكون، كما الحرفُ المصادَرُ من الأبجديّة، كما الدفءُ في شتاءٍ مهجور، كنت أعودُ إلى وسائدي وحيداً، أتمدَّدُ على جهةِ قلبي.. وأذكركِ كثيراً..

وأنا كعادتي أنطوي على نفسي وأعودُ أدراجَ حُزني وأبكي بحُرقةِ ذاكَ الظَّلام، ثم أُشعلُ الشموعَ على قلبي ليضيءَ لكِ مَجلسَك.

إنَّها امرأةٌ تغارُ من الخيال، تغارُ من العسل، تودُّ لو تصنعُ العالمَ كلَّهُ من رحيقِها، وتحلمُ كثيراً، رغم أنَّ الأحلامَ قاتلةٌ جداً...

كتبتُ لها بأشلائي: في اللّيل تعالي إليَّ، فأنا أحبُّهُ في حضرتكِ، وأحبُّ نفسي كثيراً بكلّ عُيوبِها، بكلّ أخطائِها، بكلّ تفاصيلِها السّيئةِ، في حضرتكِ أكونُ كعاشقٍ في غزوةِ هوى يدعو لنفسه بالشّهادة..

في الليل تعالي إليَّ، وأحضِري عينيكِ لأُقدّمَ نوباتِ جنوني لها عربونَ فرح، وأحضري الخمرَ مُعتَّقاً في عَتمةِ شعركِ لأُرَتِّلُ لهُ اعترافَ إدماني..

تعالي إليَّ في اللّيل، لعلَّ اللّيلَ يُنسى ويَنسى تذكيري بأحزاني، وأحضِري العطرَ كعادتكِ مُعَشّقاً في نهديكِ لأُخبرَهُما كيف العطرُ أَدماني.

كُنّا نلتقي، وكانت الدّنيا تغادرُنا حين تلتقي العيونُ بالعيون، وتلتفتُ كرتُنا الأرضيّةُ على بعضِها وتتركُنا في فضاءِ الهيام..

كنتُ شلالاً موسيقيّاً صامتاً، وأشتهي التَّوحدَ في صمتِ موسيقاها، أو الخلودَ في العزفِ الصّامتِ هذا، كان صمتُها كالموسيقى..

كُنّا نمشي معاً، يحفظُنا الطَّريقُ وننساهُ، والوردُ يُساير مِشيَتَها ولا يقرَبُها خِشيةً عليها من الأوراق.

اسمحي لي يا سيَّدتي أن أشتاق، لأنّي في غيابِك أصبح دمعي يحلم، ويأسي يحلم، وأصبحتُ أفرحُ بكلِّ ما هو أَلَم، وأهدأُ وأضحكُ كلما فَتَكَ في أضلُعي الوجع..

فأنتِ أضخمُ الأشجارِ في حديقةِ جنوني، وأطولُ سطرٍ ليسَ يُقرأ، وأثقلُ تعبيرٍ ليسَ يُحكى، وأجملُ سرٍّ يعرفِهُ الجميع..

لأنَّكِ أنت أكثرُ الشَهقاتِ إيلاماً، وأكبرُ الجراحِ نزفاً ولذّةً، وأكثرُ الحروقِ برواداً، أو البرودِ حرقاً..

لأنكِ أكثرُ الحيواتِ موتاً، وأكثرُ الأمجادِ عاراً، وأكثرُ السهرِ نوماً، وأكثرُ الكفرِ إيماناً..

لأنكِ البردُ الوحيدُ المكلَّلُ بالدِّفء، والنارُ المتوّجة بالثَّلج، وكلُّ ما يُميتُ ويَضخُّ الحياة، لأنَّكِ الذاكرة التي لا تتذكّرُ شيئاً، والنسيانُ الذي يُنسى ولا تُنسى فيه الأشياء..

لأنكِ الفجرُ الآتي بنورِ بَدْرٍ، والمغربُ المولودُ في الشّرق، والّليلُ القادمُ بظلامِ الشّمس، لأنّكِ الرّصاصةُ الّتي هاجمتِ الفؤادَ وازدادَ بها الفؤادُ نبضاً، وكان الدمُ المصبوبُ من الوريدُ إلى القلبِ يقتلهُ..

لأنّك أنت أكثرُ الحاضرينَ غياباً، وأكثرُ الغائبينَ حضوراً، وأشهى البداياتِ انتحاراً، وأروعُ النهاياتِ بَدءاً..

لأنّك أكثرُ الأدراجِ اللولبيّة ثباتاً.. لا تصعدُ ولا تهبط، لأنّك الوقتُ المتعثّرُ بعقاربهِ.. لا يمضي ولا يتوقف..

لأنَّك الكلمةُ المرسومةُ بنسيجِها الأبيض فوق قِماشيَ الأبيض، وتلك المكتوبةُ بالسّواد على ورقٍ أسود..

لأنَّك وباختصارٍ شديدٍ كلُّ هذا؛ اسمحي لي يا سيّدتي أنْ أرضى بعذاباتكِ ثمّ أهواها ثم أُدْمِنُها، وأخرجَ إلى الدنيا بندباتِ فخرٍ، لأنّك أنتِ القُبْلة المزروعةُ في اللا شِفاهْ، والضحكُ المغلّف بالسّكوت، والعارُ المُتخمُ بالشّرف..

لأنَّك أنت الروحُ المبعوثةُ في حبالِ المِشْنَقَة، لأنّكِ الطَّيرُ الطائرُ في أُفْقٍ تحتَ السيْطرة، والزَقْزَقةُ العالقةُ هناكَ في الحنجُرة..

المعذرةُ يا سيّدتي كلّ المعذرة، إنْ أنا أهدرتُ لحظةً من صُبْحِكِ بلا تأمُّلكِ، وتركتُكِ خلالها مُبعْثرة.

كنتُ في حضرةِ مقلتيها أُضِلُّ كلَّ شيء، رقصَتْ؟ نعم، وكان لأثرِ تلكَ الرّقصةِ فِعلٌ كبيرٌ، كأنَّها رقصتْ على أرضِ أبهري بكعبها العالي، كأنّها رقصتْ على أرضٍ تؤلِّفُها ملايينُ النَّايات...

كانَ النرجسُ يذبُلُ في حضرتِها، ويلَمْلِمُ القمرُ أنجمَهُ ويرحل، وأبدو أنا وسيماً أكثر، وكان الوقتُ لي.. والوجهُ لي.. والنَّهدُ لي، هي لم تكن عاشقةً، فالعشق فعلٌ اعتياديٌّ يقومُ به البشر..

كانت تنظرُ إليَّ فأرتقي ثم أسمو ثم أتوه ثمَّ أموتُ في روعةِ ذلكَ الشيءِ الّذي يفيضُ من مُحيّاها كلَّما ضحكتْ..

كان ليلُها مُذهلاً كخجلِ خدّيها، كوَشَلِ[1] حبٍ أنيقٍ ينبُع من كلِّ تفاصيلِ البشرة، كانت متألقةً.. مختلفةً.. مميزةً.. وقاتلةً جداً..

أمَّا أنا، فكنتُ أملكُ الجنونَ كالبُركانِ الثَّائرِ، وكان وجهُها بكلِّ مقاطعهِ كالفتيل، نظرتْ إليّ نظرةً واحدةً، فأشعلتني..

يُربكني الألقُ المثيرُ في وجهها، فأشعرُ أنَّي في غربةٍ عن الوطن، أو أنَّ الوطنَ بذاته في غربَتِه وغربتي، لا أدري بالضّبط.. لكنّ الحربَ تقومُ هناك بين رشاقةِ وجهِها والحلفاءُ، همُ الجاذبيّةُ والعسل، وحسدُ الدّنيا..

حينما أجلسُ أمامَ ثَغرِهَا المبتسمِ، ألثمُ الغيومَ غيمةً غيمة، أرمي ياسمينةً على الباغودا[2]، وأكتبُ رسالةً إلى القدس..

في ذلكَ اللّيلِ الأسمرِ.. كانت حاضرةً في الماضي، فأصبحتْ ماضياً يعيشُ في كلِّ تفاصيلِ الحاضرِ، وخيالها يُلقي نفسَهُ على المستقبل.

ثمَّ وحدي خرجتُ في شوارعِ الأَرَق، والكثيرُ من الجُملِ تسكنُ حلقي، عن الحبِّ عن اللّا حبّ، عن عالمٍ باتَ أصغرَ من حبّةِ الحمّص..

---

[1] الوَشل: السيلُ، سيلانُ النهرِ أو الماء.
[2] الباغودا: مبنى الديانة البوذيّة.

عن وجعٍ تضخَّمَ وتضخَّمَ حتَّى أصبحَ بحَجمِ العالمِ القديم، فسكنتُهُ، أو ربما سكنَني أيضاً لا أدري بالضَّبط، ولكنَّ البوحَ بجملٍ كهذِه كانَ هو المشكلةَ بحدِّ ذاتِها..

ها أنا ذا أشعرُ بالسَّعادةِ كثيراً عندما أراها تتحدَّثُ وتبتسمُ، ثم تفتح فمها عن آخره ضاحكةً كأنثى شرقيةٍ أكثرَ من زوجةِ الشّرق بحدّ ذاتها، لها عينٌ خاطفةٌ والعينُ الأخرى زنزانة، وأنا المخطوفُ والمسجونُ ولا أريدُ حريَّتي..

كنتُ أغادرُ بكلِّ كبرياء.. بل في الحقيقةِ كنتُ أترُكُ فؤادي هناكُ حيث هي، ولكنْ دونَ أن تعلم، كان فؤاديَ العنيدُ يرفضُ الذّهابَ معي، وحينَ أحاولُ إقناعهُ يشتمني سراً كلُعبةٍ أرادوا خطْفَها من صالةِ الألعاب..

لم نكن كالمجانينِ بل كُنّا مجانين، نرفضُ العالمَ المعتوهَ بأكملِه، نشتُمُ العاداتِ وتشتُمنا، نَعيبُ التَّقاليدَ وتَعِيبنا، كُنّا حقاً طائشَيْنِ في فرح!
رشَتني بما مَلكت من ماءٍ فابتسمتُ لها، قالت: ألا تردُّها يا سيدي؟
واحتارَ الفمُ كيفَ يُجيب!

كيف أردُّها يا سيدَتي!؟ أَتُرَشُّ باريس بالعطر؟ كيفَ أردُّها والهولنديّون فشلوا بإنتاجِ وريقاتِ وردةٍ تشبه وجنتيكِ فأردُّ بها؟ ولمَ أردُّها يا عزيزتي وليس النَّبيذ يُسكِرُ نبيذاً؟.

كُنّا دائماً على جانبِ الحياةِ، ربَّما على الهامشِ.. ربَّما تحتَ السّطرِ الأخيرِ، أو بعد النّقطة النَّاهية للسَّطر، لكن لم تكُن الحياة على هوامشنا، لم تكن في سطرِنا الأخيرِ.. ولم نضعْها بعدَ أي نهاية، وأظن أنَّ هذا كان سببَ انتصارِها علينا..

في أوّلِ لحظاتِ اللقاءِ الأوّلِ، كُنّا نفكّرُ بالفراق، وفي آخرِ لحظاتِ الوداعِ الأخيرِ كُنّا نسأل أنفسنا لماذا لا نبقى؟ نحن الّذينَ عرفنا الوداعَ قبلَ الّلقاء، وعرفنا أنَّ قيمةَ الّلقاءِ كانت كبيرةً بعدَ الوداع..

كان بيننا حبلُ حنانٍ يربُط عُنقيْنا ببعضهما، في هذا العالمِ القاسي، قبّلنا بعضَنا كثيراً ولم نكن لنشبعَ، أغفوتُ على صدرها؟ أم نامت على صدري؟ لا أدري ماذا جرى، لكننا كُنّا في لحظةِ استرخاءٍ كبيرٍ، كأنَّ الحياةَ الّتي لم تكن على هوامشِنا أصبحت الهامشَ الوحيد.

كِدنا نبكي، لا بل بَكَيْنا، لكنْ لم نكنْ نعرفُ هل وُلِدَ الدَّمعُ أم بقي في رحم أمهِ، كانت عيناياَ تحرقانني لشدّةِ ملوحةِ دمعِها، وعلى العكس كانت عيناها تحرقانها لملوحةِ دمعي، وحتى اليوم لا نعرفُ من بكى أكثر..

كنتُ أشردُ كثيراً، وكان شرودي يولّدُ ليَ الكثيرَ من المواقفِ المحرجةِ والمزعجة، كادَ شرودي يقتلُني ولا أعرفُ أكانَ من حُسن الحظِّ أم من سوءِ الحظِّ أنّني لم أمتْ!؟ لا أدري أبداً لماذا لم أمتْ، وكيف لم أمتْ ونثراتُ عطرِها كانتْ كالرصاص، أصابت قلبي في مقتل، واليوم نلقي التحية لبعضنا بإيماءاتِ العيون، نتحدَّثُ كثيراً.. نراهنُ على البقاءِ على قيدِ الحياة، ونتمنّى العودةَ إلى ماضينا، نُقدّم التَّعازي ونشدُّ على الأيادي، نواسي بعضَنا ونخرجُ من السّعادة الحادّةِ إلى الحزنِ المفرِط، ثمَّ نعودُ إليها، ثمَّ نفترقُ كما التقينا غرباء.

كان حُلُمي أن أعزفَ الموسيقى، وهي أهدتني ما تملكُ من الرّوح والجسد، فأصبحتُ عازفَ حبٍّ، يعيشُ بينَ دندنةِ خصرِها، ونوتات الموسيقى المكتوبةِ بدءاً من عينيها..

وكنتُ أتعثَّر كثيراً عندما أصل لثغرها وعظمِ التُرقوة، وتغيب عنّي الموسيقا تماماً حين أقرأ نهديها لأعودَ أُميَّاً كما ولدتني أمي....

كانت تُرخي شَعرها على الأكتافِ وترقصُ، وتُبقي الأرضَ في احتقانِها، تراها السَّماء فتبتسمُ، ويصيرُ خصرُها أحد عُمدانِها..

كانت العيونُ تلتقي.. والأرواحُ تلتقي.. والقلوبُ تلتقي.. والنَّفسُ تصرخُ وا ربّاه ما هذا الجمال، نحن فقط.. لم نلتقِ..

ثمَّ خرجتُ في شوارعِ المدينةِ وحدي، أخبرُها أنَّ الحبَّ أصابني وأنّي الآنَ على قيد حبيبةٍ، وأنَّ حبيبتي رحلت، لأنَّ الرحيلَ أحبَّها أكثرَ منّي، وأنَّي بقيتُ هنا لأنَّ البقاءَ أحبَّني أكثرَ من الرَّحيل، وأنَّنا (أنا وحبيبتي) التقينا ولكنَّنا لم نلتقِ...

كنتُ أحبُّها كثيراً، لكنّي لا أملكُ جزءاً سليماً في حشوتي تنامُ فيه بسلام، كنتُ أحاولُ إيجادَ ركنٍ لها -دائماً- أترُكها تجلسُ فيه وأصبُّ لها الحبَّ تشربُه رشفةً رشفة.. على مهلٍ وبهدوء، لتفرحَ أو تَنسى، كما تفعلُ السّيداتُ المنسيّاتُ على طاولةِ الشّراب.

كُنّا نضعُ قانوناً للعشقِ في ألّا نفترقَ، كأننا كُنّا نفكّرُ بأنَّنا سندفعُ ثمنَ اللقاءِ، في الوداع، ونتحدّثُ كثيراً عما سيحدثُ بعد أن نفترق.. وإنَّ كلَّ أحاديثِنا و وعودِنا أصبحتْ هباء..

كُنّا كآخرِ قاعدةٍ في الحبِّ لا أحدَ يصلُ لنا أو ينظرُ إلينا، لا أحدَ يحتاجُنا أو يستعملُنا لتقويمِ حياته، فمن اجتازَ كلَّ القواعدِ المكتوبةِ قبلَنا لا يحتاجُ لشهادَتِنا فنحنُ السّيناريو الأخيرُ في كتابِ الحبّ..

كانت في منتصفِ صدري، وكنتُ أرتجيها تقتلُني، فالمجدُ لمَنْ قُتلوا في سبيل وطنٍ، والمجدُ لمن قتلوا في سبيلِ حبٍّ أو على يدِ أنثى الحبّ..

كنت أعرفُ؛ أنَّ الكلماتِ ستبقى بلا روحٍ، حينَ لا تكونُ هي قصيدتي، وحينَ لا تكون هي قصيدتي، ستكون غلافَ كلِّ قصائدي.

كنت أنظرُ إلى السّماءِ وأبتسمُ لأجلِها -هذا ما تفعله السماء-، وكان اسمها في خاطري دائماً.. كانت تحضرُ في كلِّ ما أفعل، في كلِّ ما أقولُه وما لا أقولُه، وأثناءَ الحبِّ والّلا حب، والشوقِ والّلا شوق..

واليومَ نملكُ الكثيرَ من الذكرياتِ الّتي كانت تجمعُنا معاً، كحديثِ أعينِنا مع الغروب، كأمنياتِ قلوبِنا قبلَ أن تنام، كالقُبَلِ المسافرةِ من الرّوحِ إلى الّروحِ عبر الّليل..

كان عليَّ أن أنتحرَ فوراً حينَ نظرتُ إلى الوراءِ ولم أرَها، كانَ عليَّ أن أنتحرَ حينَ شعرتُ ببرودةِ يدي وضلعي الأوّل، وسُكون أضلعي اليُسرى، لا أعلمُ ما الّذي جعلني أقفُ وأصارعُ فكرةَ أنْ نفترق، ألّا نكون معاً، أنْ ننتهيَ في منتصفِ الطَّريق تماماً، عند أكبرِ محطّات الهجر..

هناك وُلِدَتْ حبيبتي... حيث كانتِ النَّجماتُ تتعرَّفُ على العشقِ، حيثُ كانت السماء تتلوّن باللَّون الخمريّ، والحزنُ يلملمُ نفسَهُ ويمضي، والخبزُ يُوزَّعُ مجاناً..

كُنّا نأكلُ الحبَّ ونشربُ الحبَّ، وننامُ على الحبِّ ونصحو على الحبّ، كلُّ النهاياتِ كانت واضحةً... واضحةً جداً، لكنْ نحنُ الّذينَ تأخّرنا في الاستسلام، وأظنُّ اليومَ أنني الّذي ظننت أنّها لن تستلم له..

كنتُ كمَنْ ودّعَ طيورَه في رحلةِ الّلا عودة، اخترتُ مكاناً لي في فوضى الأفكار، طرقتُ بابَ الحبِّ، ففتحتْ ليَ الذكرياتُ و دَعَتْني للدّخول، صُدِمتُ بحضورِ الألمِ والحنين والموتْ، على مائدةٍ كبيرةٍ من طهي الحبِّ، يتوسّطُها قلبيَ المحمَّرُ، جلستُ في الجوارِ بلا طعامٍ، فقاموا إليَّ، وأطعمني كلُّ واحدٍ مِنهم شيئاً مُرّاً، هذا آخِرُ ما أذكرُه..

مَنْ ماتَ في حديقةِ الهوى؟ ما الّذي جرى هناك؟ من قرأ تلكَ القصيدةَ المتأرجحةَ بينَ أنْ نكونَ وألا نكون واستقرّ على ألّا نكون؟

كانت قطعةً من الجنةِ لبستْ قماشَ السَّماء، ودخلتْ تستريحُ في فؤادي، وهناك رفعتُ لها لافتةً أُطالبُها بالإقامة، كان عليَّ أنْ أصمت، إحساسي المفرط جعلني أبدو ضعيفاً، لم تكنْ المشكلةُ في أن أبدوَ ضعيفاً، بل كانت في أذى الضّعف وعبثهِ بالرّوح..

لم أستطعْ النوم، ومن قلبي تسلّلتْ إلى عقلي تتغذّى على خلاياه، حتى فقدتُ اتّزان جسدي.. ووقعتُ في مقامِ هواها مُجدَّداً.. صريعَ الهوى، كلّي أشلاء، ولو كتبتُ تلك اللَّحظة سبعةَ أعوامٍ كاملةً لما انتهيتْ..

كان فيها، وجنةٌ حمراءُ.. وأخرى كخمرِ العنب معتَّقةٌ، وعينٌ كالرَّصاصِ وأخرى بهدوء القدّيسينَ مُنمّقةٌ..
ولا أدري أشربَت قهوتها مُرّة أم تحلَّت القهوة بالشفاه! أمَّا أنا، فلازلتُ ذلكَ الطّفلَ الشقيَّ الّذي أحبَّ العبثَ وكَبُرَ مُشاغباً.

كنتُ أعيشُ في عالمٍ آخرَ تماماً، حينَ تحتلُّ أفكاري، كنتُ أعيشُ علاقةً عشقٍ كبيرةً مع ذاتي، نفسي، وأشيائي.. لا أواسي فيها حُزنَ حبٍ سابقٍ، أو ماضٍ أليم، بل أعيشُها بكلّ تركيزي، حبي، تفاصيلي، عيوبي، وأخطائي.. وبكلّ الصّفاتِ الّتي قيلتْ عنّي أمامَ غيري، حتى أنَّني أفكّرُ أنْ أدخلَ عُرسي بملابسي العاديّة، مُصطحباً كأسي ودخاني، وأن أمارسَ دورَ شخصٍ من المدعويّن إلى هناك، وأضحك.

كانت أحقّ بقلبي منّي، ولها الخيارُ في أنْ تعيدَهُ للحياة أو تقتلَه، كنتُ مُسالماً حدَّ الاستسلامِ لكلِّ ما تختارُ وتشاءُ كأنني ناسكٌ متعبّدٌ، وهي السَّماء..

أحببتها كثيراً، أحببتُ وجودَها، حديثَها، وجسدَها الشَّرقيَّ جداً.. لكنَّها لم تكن لي.. لم أكن في محطّاتِ وقتِها، كنتُ حقّاً ذلك الأربعينيَّ الّذي انتقلّ من القُبلة إلى الصّفعة، عندما كان في حضرةِ أنثى.

احتجتها، أنْ تدخلَ أعماقي... أنْ تستأصلَ من هناكَ الخوفَ، الألمَ، الحاجةَ، الضَّياعَ، والسّهرَ الممزّقَ على طللِ قلبٍ ممزّق.. كنتُ أريدُها أن تنتشلَ منّي الحبَّ أو تنتشلَني منَ الحبِّ، أو تزيلَ عن أكتافي الآمالَ المعلّقةَ عليّ، أو تُنهيَ طريقي وحياتي بطريقةٍ مجنونةٍ تُرضيها هي، ولا بأسَ إن لم تكن تُرضيني، ولأنَّ رأسي لم يعدْ يحتمل..
طلبتُ منها أن تُنهيَ اختلالَ عقلي فلا أضاجعُ وسائدي مجدّداً، لا أنحني لوردةٍ صناعيةٍ ولا يبلّلني نداها المُزيّفُ الذي لا يَقوى على الحركة، لا أسكرُ بلا مُسكرات، ولا أصحو حينَ أكون في ركنِ كلماتي ودواتي....

فالأحزانُ كالأمراضِ المزمنةِ، والخبيثة أحياناً، كلَّما كبُرَتْ كلّما قَلَّ سبيلُ شفاءِها أكثر، وماتَ أصحابُها موتَ الشُهداء..

مدهشٌ هوَ تألُّقُها الحاضرُ في عينيها، لِدرجةِ أنَّني اكتشفتُ أنَّها تكذبُ في إحدى اللَّحظات ولكن كنتُ أصدّقها..

كنت أبكي كثيراً، ولم يكن برفقتي سوى قلبي، والسوادُ الملتفُّ في مسقطِ النظر، كنتُ أفكّرُ بما سيحدثُ غداً وكانت الأيّامُ تمضي هكذا..

وأعترف أنَّها كانت مُذهلة، يتألّق وجهُها كحبّاتِ الشّمس، وقَصّة شعرها الجديدةُ جعلتني أُذهَلُ أكثر، كانت لي. في أحلامي، وحين نظرتْ إليّ نظرة العشق أيقظني الحلم من الحلم، وكان سقف غرفتي حزيناً جداً، لكن الحلم كان ممتعاً...

نظرتْ إليَّ فأسكرَتْني، وأنا المخمورُ بالمُقَلِ.. عُدتُ أبحثُ عن نفسي بعدَها، وما وجدتُ من نفسي إلا القُبَلَ، نعمْ خانني الحبُّ كثيراً، وخنتُ الانكسارَ بالأملِ، جلستُ أكفكفُ الحزنَ عن أحزاني، أُخبرُ الرَّحيلَ أنّي رحلتُ، وأعدِهُ بعودتي حينَ أجدُ نفسي.

***

الحبّ، هو الحالةُ الحياتيّةُ الأروعُ تماماً، هو فعلاً أن نطلق العنانَ لأنفسنا وللحياة، هو مفَكُّ القيودِ كلِّها، وربطةُ المعصمِ المميزةُ والطائشةُ، هو حالةُ الغثيانِ الّتي نعيشها فجأةً، وحالةُ الذّعرِ الّتي تولدُ برَجفانِ الفؤادِ خوفاً مِن أو على ساكنه، بلا أي سبب يستدعي ذلك..

الحبُّ، هو الخروجُ عن المألوفِ الطبيعيّ روحاً وجسداً، حزناً وفرحاً، شروقاً وغروباً، هو العطاءُ الّلا محدودُ في أيّامٍ لا عطاءَ فيها، هو بالضبطِ تلكَ التّغريدةُ المنفيّةُ بقرارِ سِربها..

الحبُّ، هو الانفصامُ، شيزوفرينيا الواقعِ والواقعِ المختلفِ، الحياةُ والّلا حياةُ في قبضة واحدة، بصمةُ الإبهامِ على الإبهامِ، وعناق سَبَّابتين لخمسِ ثوانٍ نخطِفُها في وحشةِ الدّنيا..

ليست الحياةُ كما نشتهي عموماً، مهما كانَ عددُ الورودِ الحاضرةِ في المكان، فإنَّ الرَّبيعَ يمضي، ويعودُ الخريفُ مجدّداً، وها أنا الآنَ جئتكَ من ذاكَ الربيع الّذي ذكرته لتوّي، سيراً على القلب.

جئتك بعد عراكٍ طويلٍ مع الحياة، أخبرُك أنَّ الحياة قتلتني، جئتك أنا وروحي وقلبي وحبّي وشكلي والأربعون أشباهي، كلنا خاسرون، فإنْ استطعتَ، فانتقم ولو لمرةٍ واحدة..

جئتك من كابوسي، من بين أنيابِ الوداعِ، أخبرُك ألّا شيءَ مثلُ الحبِّ، ولا شيءَ قبلَه، ولا شيء بعدَهُ إلّا الحب، فلا تتركه يمضي وشأنَه كما جاء، لو عرف أنّك تاركه لَما جاء..

جئتك أنا و وداعي وهجراني وآهاتي وما بقي لديَّ من أحشائي، أصرخُ فيك صرخةَ العشق، فإن استطعتَ، فانتقم ولو لساعةٍ واحدة..

أقم أعراس الفرح يا صديق، ادخلْ إلى الحبِّ وعش فيه، إنّه قابلٌ للحياةِ إذا أردتَه، ادخل إليه بكلِّ ما فيكَ من قوّةٍ وجبروت، لا يخيفُنَّك انهيارُك، فستنهارُ غداً في كلِّ الأحوال، مرّةً في العمل، وأخرى في المنزل، مرّةً لأجل صديقٍ، وأخرى تأتيك من ذوي القربى، وهكذا..

قد كنت مثلك أفضّلُ الغروب، حتى غربتْ روحي، ووقعتُ في وادي الوحيدين وحدي، لا شيءَ حولي إلّا الجدرانُ النّاطقةُ، لا أحدَ معي يردُّ عليَّ سوى صدى صوتي المتردّدُ، أصرخ أسأله: أين الحياة؟ فيرد عليَّ يسألني: أين أنت؟.

جئتك من بين براثِنِ الفراغِ، لا ناجياً ولا كما هم يحسبون... غادَرني الوجودُ تماماً مذ قرّرتُ انتشالَ جثّةِ الابتعاد، لا شيء الآن يَدفعُ إليَّ الحياة، لا حضناً أحتويه، لا وطناً عني يُدافع، لقد ركبتُ أمواجَ المأساةِ، كأيِّ شرقيٍّ عربيٍّ في هذه الدنيا، لقّنوه كلَّ شيء حتى أصبحَ نسخةً تقليديّةً جداً..

أسمعُ حديثَ المرايا، يُهيننني صوتُ الجرس، تُرعبُني رنّة هاتفي المباغِتةُ، أذهب لأرتّبَ في داخلي الطرقات، لأعيدَ اصطفافَ السيّارات، لأبحثَ عن انتصاراتٍ، أتمتمُ في روحي الآيات..

فأكتشفُ أنّنا انتصرنا حقاً، لكنّنا انتصرَنا على بعضِنا البعض فقط، لا على الأعداء، وبقينا كلُّنا خارجَ حدودِ الحكايات، ثم أترُك نفسي للضياع مستسلماً، وأشتمُ الزمانَ بالضحكات..

أجلسُ بلا أصدقاءَ في مقهى، تنتابني نوباتُ الكلمات، هناك يَحضرُ الحنينُ ضيفاً، يروي لي عراكَه مع الذكريات، يلملمني الشوقُ من نفسي، يضعُني هناك في أزقَّةِ الغائبين والغائبات، وأصرخ بأعلى صوتي؛ أين الحياة!؟ فيردُّ صدى صوتيَ المتردِّدُ مجدّداً يسألني: أين أنتْ؟؟ ثم أترك نفسي للضياع مُستسلماً، وأشتمُ الزمان بالضحكات.

أمسكُ الانجيلَ والقرآن، وأفكِّرُ يا تُرى أيُّهما تستجابُ بهِ الدّعوات؟ ثم أين تُقام الصلاة، يوقظني صوتُ رصاصةٍ تخترقُ النّثر والصّفحات، تنقذني امرأةٌ تمشي، تعدُّ الخُطْوات، وفي كلُّ خُطْوةٍ أرمُقُها مئاتِ المرَّات، كانَ السؤالُ الحقيقيُّ؛ يا أيتها الآلهة أيّ النهدَينِ أعبدُ، وأين أقيمُ الصلوات؟ ثم أتركُ نفسي للضياعِ مُستسلماً، وأشتم الزمان بالضحكات...

ثمّ أنكبُّ على أوراقي، أكتبُ رسالةَ اعتذارٍ للّيلِ لأنّي غفوتُ فيه بالأمسِ للحظات، ثمّ للوحدةِ لأنّي تركتُها وحيدةً للحظات، وربما يستوجب عليَّ الاعتذار لأمي لأن شَعري وكلمات شِعري تساقطا كأيّام عمري، بل لحبيبتي أيضاً لأنّي لا أراها بوضوحٍ، هكذا جاءت عيناي، ولا أعرفُ ما السبب، وأختمُ اعتذاري بالتعب، لأنّي ما استطعتُ الانتصارَ في معركةِ النّومِ، إلّا للحظات، ثم أتركُ نفسي للضياع مُستسلماً، وأشتُمَ الزمانَ بالضحكات..

ألجأُ للمَشي، لقد رأيتُ صورَهم ترتَسِمُ عبرَ الدُّخانِ منذُ قليل، والقلبُ في مكانِه يتخمَّرُ ككُرومِ الأندرين وخمرِها الأحمرَ..

نادتني الكأسُ على عجلٍ؛ أنْ انتبه! أنا هنا! فأيقنتُ حقّاً أنّني لستُ هنا، وعلى الفورِ قمتُ من مكاني لاجئاً للمشي، أتحدّثُ مع المدينةِ، في بردِ نَيْسان المسائيّ (أُحبُّ هذه النسماتِ المسائيّةَ الباردةَ)، أبتسمُ للأشجارِ، أتمعَّنُ في وجوهِ المارّة وأبتسم لهم من فرطِ اشتياقي للحبِّ، تصرخُ في وجهي إحدى الآنساتِ قائلةً: لماذا تبتسم يا فتى؟ فأنظرُ إلى الأرض وأكمل المشيَ مبتسماً متمتماً: أنا لم أقصد إزعاجك.. فقط شعرتُ بوحدتي أمامَ حاجبيكِ الملفتين... يا الله متى أفارق الحياة!؟ ثم أرفعُ رأسي وأكملُ المشيَ، يتوقّفُ صوتُ الموسيقى في أذنيّ، أنظرُ إلى هاتفي وأقرأ: لقد تجاوز عدد خطواتِك ألفَ خطوة، أحسنت!.. وأضحكُ... أذكرُ أنّي ضحكتُ كثيراً حينَها..

مضت الدقائقُ مسرعةً كخطواتي، حتّى أخبرني هاتفي النقّالُ أنّ خطواتي تجاوزتْ أربعةَ آلافِ خطوةٍ، شعرتُ بالحزن، لقد مشيتُ أربعةَ آلافِ خطوةٍ ولم أجد أحداً يبتسمُ لي، بل لم أجد ثغراً واحداً مبتسماً، لا أعرفُ ما الّذي جرى لهم.

جئتك من تأوّدِ قلبي، أسألك أين يباعُ الصبرُ، وأستفسرُ عن عملِ معاملِ الأدويةِ لديكم، هل استطاعوا إيجاد علاج الشوق؟ أم أنهم لازالوا على قيدِ الباراسيتامول يبتسمون؟ وكيف أصبحَ حالُ الأطبّاءِ عندكم؟ هل استطاعَ أحدُ جرَّاحيكم الوصولَ إلى الوجدانِ أم ما زالوا يعالجون فقط آلامكمُ السّطحية؟ هل بدأت نقاباتُ المحامينَ بالدّفاعِ عن الحبِّ وحريّتِه أم لازالوا يصفقون؟ هل بدأتْ عودةُ المزارعين إلى حُبِّ الأرض؟ أخبرني أرجوكَ لترتاحَ ندباتُ قلبي، هل بدأ الأساتذةُ بتدريسِ قواعدِ العشقِ والاهتمامِ بتضاريسِه وأحوالِه المعنويّةِ والجسديّة أم أنهم نسوا كلَّ شيءٍ لأجل الدروس الخصوصية؟ هل بدأ المهندسونَ بهندسةِ شكلٍ جديدٍ للهوى؟

هل استطعتم مداواة تلافيف العقول المعقدة والمعاندة؟؟ أم لازالت أجيالُكم تغوصُ في جهل العالمِ الثالثِ ومبرّراتِ مجتمعاتِه كما كنّا وكان مَنْ قبلُنا؟؟

هل لازلتَ تفضّلُ الغروب؟ اغرُبْ ماذا تنتظر؟
احمل ما يكفيكَ وامضي، وحضّرْ الحناجرَ للصرخاتِ، حنجرةٌ واحدةٌ لا تكفي، خذ نظرةً أخيرةً لمن هم حولَك، اطلب منهم الوقوفَ هناك، حيثُ يقفُ الغرباءُ تماماً في جنازةٍ يتفرّجون، ولا تُسقطْ دمعةً واحدةً من عينيك، هُنا لا أحدَ تهمّه عيناك، فلماذا تبكي؟!

لقد بكيت قبلك أياماً طوالاً، أخالُها اليومَ أعواماً كاملةً، وما مسحتُ دمعي إلّا ظنّاً منّي أنَّ مَن مسحتُ دمعاتِهم سيقفونَ بجانبي، أو خلفي، أو أمامي، لا فرقَ عندي، لكنّي في الحقيقة؛ ما وجدتُ منهم أحداً، كلُّهم أرادوني معَهم لكنّهم أرادوني كما يفضّلون، صفةً، مكانةً، وطبعاً!.

احمل ما يكفيكَ وامضي، ثم أَفرغْ مكانكَ عمداً، اجلسْ خلفَ طاولتك، وإنْ لم يكنْ لديكَ طاولةٌ فاجلسْ كيفما شئتَ، كيفيّةُ الجلوسِ لا تُهم، أمسِكْ القلبَ واكتب ما تريدُه، ما حصلَ معك حتى الآن، خطواتِ فشلِك كلَّها، إحساسَك بالفشل، وأركانَ الفشل، اكتبْها وأنتَ تشعرُ بالفخرِ فهذا الفشلُ هو بحدِّ ذاتِه نجاحٌ، لأنّك حاولتَ خلاله ألّا تكون فاشلاً ولم تنجح، اكتب ما تريدُ وما لا تريد، هذه الأحرفُ هي أصدقاؤك الّذينَ لا يعرفونَ الخيانةَ أبداً، وهذه الأوراقُ هي بمثابةِ المرآة، والمرايا لا تكذبُ ولا تعرفُ الغدرَ ولا تولّدُ الاحباطَ إلّا لتغييره، ثم اكتب ما تريدُ أنْ تكونَه غداً واكتب تحتَ كلِّ شيءٍ: أنَّ بطاريَّتَك على وَشك النفاذ (الرّجاء التوصيلُ بالشحن)، ضعِ التاريخَ كما هو..

واذهب لتشحنَ نفسَكَ مجدّداً، افعل ما تحبّ، كن هادئاً صبوراً وابتسم، لا تبتسم فقط... بل اضحك بأعلى صوتك، ففي هذا العالمِ يكونُ الإحباطُ حليفَك دائماً، في هذا العالمِ، عليك أن تركضَ آلافَ الأميالِ لتصلَ إلى مكانةٍ اختارها غيرُك لك، عليك أن تحاربَ في معركةِ استنزافٍ لكلِّ ما فيك، حمايةً وتصديقاً وتنفيذاً لفكرةِ مديرِك أو من يعلوك ترتيباً..

في هذا العالم، يكونُ الإحباطُ حليفَك لأنّك لا تستعرِضُ مهاراتِك، ولا تستمعُ للنّصحِ بصمتٍ، ثم لا تنفّذ برغبةٍ جامحةٍ مصدرُها الأعماقُ، وبالتالي لن تكونَ ممتناً لنصحهم، أضف على ذلك أنّك لم تأتي من فوق، وبالتّالي ستدخلُ المعركةَ مجرّداً..

في هذا العالم، لا تقعُ بقعةُ الضّوءِ على جُهدِك المبذولِ أو على روحك الّتي أتلفْتَها لتقومَ بشيءٍ ما، بل تقعُ على تقصيرِك، على عدمِ تنفيذِ التّعليماتِ بحذافيرها وإنْ كانت لا تناسبُك، فهذا ليس شأنَهم ولا حتى شأنَها..

و في مفارقةٍ هي الأغربُ أو ذاتُ المعنى الأثقل، لا أحدَ يخبرُك بالنّجاحِ، وإن أخبروك به، ستكونُ كلماتُهم شديدةَ الاختصارِ وتمرُّ مرورَ الكرامِ فقط، لكنَّ الجميعَ يتسابقونَ لإخبارِك بالسقوط، أمّا أنا شخصيّاً فكانت حياتي مليئةً بلحظاتِ السّقوط، لحظاتُ سقوطيَ تلك هي بالضبطِ لحظاتُ أنانيّتي، فأنا لم أترك لأحدٍ فرصةَ انقاذي، ولم أقم متكئاً على أحد، لأنّي أعرفُ جيّداً أنَّ أقربَهم إليَّ هو الأكثر طعناً وهذا حالُك أنتَ أيضاً، فاطلب مِن الجميعِ الوقوفَ هناك حيثُ يقفُ الغرباءُ في جنازةِ شخصٍ لا يعرفونَه ولا يكنّونَ له أيَّ شيء...

إنَّ إحباطَهم لكَ لن يجعلَك استثنائيّاً كما سيخبرونك أو سيبرّرون لك، فاستثنائيَّتُك عندما تصبحُ واقعاً، تكونُ أنت صانَعها وهذا ليسَ من شأنِهم ولا يحتاجُ إلّا لصمتهم..

لا تكن ممتناً لأحدٍ، ولماذا تكون؟ لا أحد يرمّمُكَ، لا أحد يسندُك، لا أحدَ يعرِفُ تفاصيلَك، لا أحدَ يستطيعُ فهمَكَ أو يعطيكَ وقتَه حبّاً بالإنصاتِ لضياعِك، هم فقط ينتظرونَ منك العطاء، العطاءَ الدائمَ والمجانيّ، وكلُّ ما يقدّمونه لك يقدّمونه وفقاً لرغبَتِهم أو مِزاجِهم، وأنا مثلُهم لا أدّعي المثالية أبداً، فكلُّ ما كتبتُه فيما سبق وما سأكتبُه فيما يلي، كانَ خاضعاً لمزاجيَّتي وإحساسي وحساسيّتي وتأمّلي، كانَ بكلِّ أخطائِه الّتي تركتُها متعمّداً تحتَ سُلطتي..

وأنا مثلُك أيضاً، لا مثلَهم فقط، مثلُك أمسكتُ القلبَ لأكتبَ، وكتبتُ إليكَ من حبلِ مشيمتي المقطوع، كتبتُ إليك من رَحِمِ غُروبيَ الّذي أجهضَ الحياة للتوّ في الشارع المذكورِ أعلاهُ، الّذي كانَ من المفترضِ ألّا أكونَ فيه وحدي، على طاولةٍ حولَها عدّةُ مقاعدَ كان من المفترضِ ألّا تكونَ فارغةً هكذا..
بجوارِ لوحةٍ كُتبَ عليها Dream It's Possible ولا أعرفُ ما معنى أن تكونَ بجواري الآن لوحةٌ كهذه!.

لستُ ممتنّاً ولا أرفضُ أن أكونَ ممنوناً على الّلا شيء الّذي قُدِّمَ لي، لكنّي أقفُ منتظراً الحبَّ الّذي وحدَه يستطيعُ إخراجَنا حينما يكون في الشريان الرئويّ للحياةِ لا للجسدِ فقط، أقفُ آملاً انتهاءَ كابوسي على أحدِ شواطئِ المودّة، ولستُ أخشى عدمَ انتهاءَه، فقد تصالحتُ معَه منذُ عدّةِ أيامٍ، وأصبحْنا نتناولُ العَشاءَ معاً، أعطيتُه إحدى وسائدي المبلَّلة، متفادياً بكاءَه، لأنّنا ننامُ معاً في سريرٍ واحدٍ، أقنعتُه ألّا يتناولَ القهوةَ، ويستبدلَها بالنبيذ، اعترفتُ له بأنّي أكثرُ الشبّانِ فشلاً، طيشاً، وجنوناً، وسأبقى ذاك الفتى المشاغبَ دائماً، وبدورِه كانَ مقتنعاً تماماً بأن نُسختي هذه، هي النسخةُ الأفضل منّي، فيا الله متى أفارقُ الحياة!؟.

ثمّ تأخذُنا الحياةُ معَها إلى العالمِ الأسودِ، وهناكَ ننامُ.. في مدينتنا نسمعُ أصواتَ القتلى والقاتلين، كلٌّ على طريقَتِه، نعيشُ في شيءٍ ما يشبِهُ الصّدمةَ لكنَّنا نكونُ فيه سعداءَ وهادئين، ربّما هي السّكينة الّتي في داخِلِنا بدأتْ تتمدد، ونعيشُ في شيءٍ آخرَ لا يشبِهُ الحزنَ لكنّنا نكونُ فيه أشبه باليتامى، أو ربما هو خوفُنا ممّا نخفيه داخلَ طيّاتِ القلب ونحن نكونُ فيهما معاً، وكلاهما هو كأسُ الماءِ الّتي يكونُ فيها الماءُ نصفاً بارداً ونصفاً دافئاً..

ويسألونَ ما بنا؟ فنتحضَّرُ للإجابة، نصحِّحُ طريقةَ جلوسِنا، نتنهَّدُ رافعينَ رؤوسَنا لنبدأ الكلامَ، فتقفُ الكلماتُ في الحنجرة لا هيَ تخرجُ توصلُ الخبر، ولا هي تعودُ فتكمِلُ الكتمان، ونكتفي نحنُ بابتسامنا ليجيبَ على السّؤال، إنَّ أعمقَ إجابةٍ عمّا نخفيه في دواخلنا، هو ابتسامة نُصدِرُها ونترُكُها لوحدِها، ونترُك للصمتِ فرصةَ ترجمتها.

***

الحبُّ، هو تلكَ الفتاةُ الّتي تعملُ في المقهى بأجرٍ لا يتجاوزُ قوتَ يومِها، وفي الغالبِ يكونُ ناقصاً عنه، وهو ذلك الفتى العاملُ الّذي يقومُ بحملِ الحجارةِ -مثلاً- ليُؤمِّنَ ما يكفي عائلَته.

الحبُّ، هو تلكَ الأمُّ الّتي تُتمتمُ طوالَ اللّيلِ، راجيةً الإله حمايةَ زوجِها وأبنائِها وأحفادِها، فتدنو السماءُ إليها تكريماً لدعواتها، وهو ذاك الأبُ المتعَبُ المجهَدُ الّذي تُقامُ على صدرِه تلك الصلوات..

الحبُّ، هو ابتسامةُ الغريب للغريبِ بلا غرورٍ، في لحظةِ ألمٍ، وهو مُزاح الصديقِ للصديق في وقتٍ لا يُناسبه المزاحُ أبداً..
(إذا كنت تملك صديقاً كهذا، تمسّك به جيداً)، الحبُّ هو الأشياءُ الأكثرُ غرابةً، والّتي لا نفكّرُ فيها أبداً.

ثم أنتهي من المشيِ، على بابِ منزلي، أفتحُ البابَ بجبنٍ خوفاً مِن أنْ أوقظ مَن في داخلِه، فصوري المعلّقةُ هناكَ على الجدرانِ لم تنمْ رُغمَ كلِّ معاناتها من المَيَلان، ومقعدي المُمسَّدُ من جلوسيَ الطويلِ بدأ يلتمسُ الرّاحةَ، عندما فتحتُ البابَ مغادراً وأنا أقضُمُ صديقتي التفاحة، كأسي ودخاني، شعوري بالغثيانِ، تقيُّئي للأحزانِ واقتراحاتُ نسياني، كلُّهم كانوا أوفياء وبقيوا كما تركتُهم عندما نظرتُ إليهم نظرةَ استغناء، وكعادتهم قاموا لاستقباليَ كأنّي ما أتيتُهم منذ أعوام، كأنّي أنظرُ إليهم الآنَ من السماء..

دخلتُ إليهم وكعادتي مبتسماً، وكأنّنا نتبادل الأوكسيتوسين الخاصَّ بنا، خلعتُ حذائي وتوجَّهتُ مباشرةً إلى الطاولةِ، وضعتُ عليها علّاقةَ الأحلامِ بجانبِ القلم الّذي لم يتحرك من مكانِه منذُ عدّةِ أيّام، انسلختُ من معطفي، ثمَّ ذهبتُ إلى الشرفةِ فتحتُها، رفعتُ رأسي إلى الإله، وصرختُ أسألُه؛ أينَ الحياة؟ وإذ بصدى صوتيَ المتردّدِ مجدداً يسألني: أين أنت؟

أنا يا سيدي، هناكَ في المنتصف، هل تراني؟ هناك، هناك، بينَ اللقاءِ الّذي لم يحدثْ بعد، والوداعِ المستحيلِ على الّذي لا يعرفُ كيفَ يبتعد، هناك.. على الرسماتِ الحدوديةِ الفاصلةِ بين الوطن والمهجَر، بين المرِّ والمرّ أكثَر.. هناك أتوضّئ بالحبِّ لا بالماء، وأجلسُ عندَ المَغربِ أُخمِّرُ عشقي حتى آخرِ المساء أجلسُ واقفاً، أضحكُ باكياً، نعم.. أنا من هؤلاء.. لا أنامُ، لكنّي أقومُ عندَ الفجرِ أدعو، وأمزِجُ دعواتي بالبكاء.. ربّاه رفقاً بقلبي ورحمة، قد هشَّم الحزنُ الكبرياءَ.. رباه، بأيِّ ذنبٍ أصابُ بالموت، وتبقى على قيدَ الحياة أجزائي؟؟

يا صوتي، أنا هناكَ في المنتصف، كيف لا تراني؟ رجعتُ إلى الأشهرِ التّسعةِ الفاصلةِ بينَ الحملِ والولادة..

أحاولُ استنشاقَ وتخزينَ السّعادةِ، أرفضُ الحياةَ وأرفض ذلك المعتقلَ الّذي يُقالُ عن دخوله ولادة.. هناك، في الحربَ الناشئةِ بينَ الظلامِ الحالكِ والأحلام، أقفُ منهارَ القِوى، أكتبُ للحبيبات السابقاتِ رسائلَ رجاء، أنْ رشفةً واحدةً قبل الوداعِ منَ الهوى، يا الهي بأيِّ ذنبٍ أُصابُ بالموت، وتبقى على قيدِ الحياةِ أجزائي، ولماذا يُكتَبُ عليَّ قبلَ موتي، كتابةُ قصيدة رثائي؟؟

أنا هناك يا سيدي، رجَعتُ ألملمُ أحلامَ الطفولة، وأرسمُ وجوهَ الأصدقاءِ، يومَ كنّا أنقياء أتقياء، حياتُنا كلُّها قلمُ رصاصٍ وممحاة، رغيفُ خبزٍ نأكلُه معاً حيثُ يُنتَج ساخناً، وقطعةُ شوكولا تختبئُ في جزادين أمّهاتنا، أمّا المساءُ فنقضيه مع ترنُّمِ الآباء بصوتِ السيِّدةِ (أم كلثوم) دونَ أن نعيَ حرفاً واحداً ممّا كانت تقول، لقد سألتُ نفسي كثيراً ماذا تقول، لماذا يتمايلون هكذا إنْ هم ليسوا بعارفين؟ وما بين ذاكَ الرغيفِ وتراتيلِ السّيدة، وقتٌ لواجباتنا المدرسيّة، للخيالاتِ الّتي كنّا نحبُّها بطهارة، لخوفنا من الوحوشِ الّتي تستطيعُ أكلَ الحائط فتصلَ إلينا، وأصواتُ عراكٍ نشَبَ بين أمٍّ و أخٍ أو أختٍ أو كليهما، يا إلهي أين هم الآن؟
يا إلهي بأيِّ ذنبٍ أُصابُ بالموت، وتبقى على قيدِ الحياةِ أشلائي، ولماذا يُكتَبُ عليَّ قبلَ موتي، كتابةُ قصيدةِ رثائي، يقرأها أولئكَ الذين شوَّهوا نقائي!.

عدت من شرفتي إلى مطبخي، بدأتُ أفتِّش في أوانيَّ الفارغةِ عن العشق، فتحتُ كل الخزائن، جرَّبت تحريك الملاعقِ والسكاكين، وانتقلت أفصِلُ بين الصحونِ المتلاصقةِ، أقلّب الفناجينَ..
أقنعتُ نفسي بالعطشِ لعلَّ شيئاً من العشق يختبئُ هناك بين قواريرِ المياه، بدأ الضوء يتضاءل شيئاً فشيئاً، حقاً لا شيء هنا..

دخلتُ غرفةَ نومي، فتحتُ خزانةَ الملابسِ أحرّك القمصانَ بسرعةٍ، نظرتُ في الرّفوفِ متفادياً رفوفَ الذكرياتِ، نظرتُ تحتَ السّريرِ، وفوقَ السّرير، حرّكتُ كلَّ الوسائدِ والشراشفِ والأغطية، سحبتُ كلَّ الدّروجِ، لا شيءَ هنا أيضاً سوى الغبارِ المتصاعدُ من كثرةِ الهجران..

سألتُ أفرادَ عائلةِ الدّمى الّتي أقتنيها، فرداً فرداً، الأوّلُ ضحكَ عليَّ، الثّالث رفضَ الإجابةَ، الخامس قال لي: ليس للغرباءِ إلا الغرباءُ فلا تتعبْ نفسَك، السابعُ سألني بدوره: أين أنت؟ تجمّدَ الدّمُ في عروقي، حتى أنت يا عزيزي تسألني!!؟

ما بكم!؟ لم أغادر يوماً أحدَ أصدقائي قبلَ أن أزرعَ على وجهِه ابتساماتِي، ما رددتُ يوماً أحدَ السائلينَ عن الحنان، كنتُ أمدُّ ذراعي عن آخرها، وأمسحُ الدموعَ عن كلِّ العيون، تاركاً في عيوني دمعَ العالمِ كلَّه، متجاهلاً آهاتيَ المولودةَ بلا أيِّ صوتٍ، لا أحدَ اليومَ يسألُني عن بكائي، أو يستفسرُ عن آهاتي المرسومةِ تحتَ عيني، إلّا تلكَ الغريبةُ الّتي سألتني عن السّاعة، كنتُ أعودُ متعباً كأنّي مشيتُ الصّين من طرفٍ إلى طرفٍ على صدري لا على الأقدام، ربّما كانت دميتي على حق، ليس للغرباءِ إلا الغرباء..

يا إلهي بأيّ ذنبٍ أصابُ بالموتِ، وتبقى على قيدِ الحياةِ أشلائي، لماذا يُكتَبُ عليَّ قبلَ موتي، كتابةُ قصيدةِ رثائي، ثم يقرأها الذين شوَّهوا نقائي، لقد نسيَني أولئك الّذين فرشتُ لهم القلبَ بغبائي.. وعادوا يسألونَ اليومَ عن رثائي.

(٢)

ثمَّ خرجتُ في شوارعِ المدينة وحدي، أخبرُها أنَّ الحبَّ أصابني وأنَّني الآن على قيدِ حبيبة، وأنَّ حبيبتي رحلت، لأنَّ الرحيلَ أحبَّها أكثرَ مني، وأنَّني بقيتُ هنا لأنَّ البقاءَ أحبَّني أكثرَ من الرَّحيل، وأنَّنا (أنا وحبيبتي) التقينا ولكنَّنا لم نلتقِ..

ميّار

دعيني أرقدُ بسلام... لأنِّي فقدتُ روحَ الاجتماع، لأنَّ الأشياءَ كلَّها باتت على مقرُبةٍ من النِّهاية، ولأنَّ النِّهاياتِ هي غالباً مأساوية.. دعيني أرقد بسلام، مللتُ كلَّ شيءٍ.. كلَّ الأزمانِ والأحداثِ والأحداق، اليومَ أصبحت أنظرُ من خلفِ نظّارتي الشّمسيةِ حبّاً في أن أرى العالمَ مُعتماً أكثر، ولأحميَ عينييَّ من نظراتِ الغَيرِ، ومن أملِ الشّمسِ الّتي لم أستطع تحديدَ سبباً لإشراقِها إلّا أنَّها تتناوبُ مع القمرِ في حراسةِ الألم..

تغيّرتُ جدّاً، نضجتُ بمقدارِ علاقةِ حبٍّ، قلَّ اهتمامي بكلِّ شيء عدا التّفاصيلِ الصغيرة، الّتي باتت تزعجني أكثرَ من ذي قبل، اختزلتُ الأحاديثَ كلَّها، ناديتُ الإلهَ كثيراً، وكلُّ الأمنياتِ الّتي تمنّيتُها فشلَتْ، أصبحَ الصّمتُ هو كلاميَ المُعتادُ، فقدتُ القدرةَ على التَّحمُّل، وأصبحت أُفضِّلُ الرَّحيل دائماً.

كان إحساسي بها جميلاً جداً، لكنَّه كان سيئاً جداً في بعض اللَّحظات، ومن هنا بدأت أتغير أمامها، كنت أسأل نفسي عنها كثيراً، لكنَّ إهمالها في ردّ الرسالة جعلني أرفض إرسالها مجدَّداً، ولكن احتفظتُ بها بيني وبين نفسي..

كان يمكنُ أن أنتظرَها كثيراً، أكثر ممّا يُخيَّل لها، ولكنَّها نسيَتْ انتظاري، ونسيانُها هذا كان صاحبَ القرارِ في ألّا أتركَ نفسي منتظِراً، وألّا أنتظرَها بعدَ ذلك، وألّا أضعَ لها أعذاراً.. فليسَ للأعذارِ فائدةٌ حين تكونُ القصّةُ قصةَ إحساس...

كنت أتمنّى أن أخرجَ منها مهزوماً فأنا لا أخشى النَّظرَ في عينَي امرأةٍ هزمَتْني بقدرِ ما أخشى النّظرَ في عيني امرأةٍ هزمتُها.. تجنباً لتكرارِ المعركة..

حينها شعرتُ بالنَّدم على اللا ذنبِ الّذي اقترفتُه واللا وعي الّذي أحييتُه حين التقيتها، لا أدري كيفَ أصبحَ وجهُها قبيحاً كما لم يكن من قبل، في الحقيقةِ لم أرَهُ هكذا حتى عندما كنّا غرباءَ، ربما ظِلُّ الفرحِ قد ألقى نفسَه عليها وأنا لا أحبُّ الفرح..

كنت أظنُّ أنَّها قتلَتْني، وحين ركبتُ جنوني ومضيتُ أقطعُ مئاتِ الأميالِ لأراها وأتأكّدَ أنَّ البحرَ بلعَها أثناءَ غروبِها، عرفتُ أنّي لم أُقتلْ بعدُ ولكن.. وبمعنًى أدق، عرفتُ أنَّي لم أنتهِ، ولأنّي رجلٌ فلن أنكرَ أبداً أنَّ الحنين قد شقَّ قلبي..

حين ألمحُها، أشعرُ بالدّوارِ، أتساءلُ ما الّذي أوقدَنا وما الّذي أطفأَنا، كيفَ يمكنُ أن تُنسى القُبلُ، وأن تُمحى من الذَّاكرةِ كلُّ تلكَ الشوارعِ الشّاهدةِ علينا؟ لكنَّني أشعرُ بالفخر، لأنَّها كانت عصيَّةً على الجميعَ ومرَّت من هنا.. كانت هنا في يومٍ ما تحتَ أجنحةِ جنوني تختبئُ، ولم تعد عصيَّةً بَعدي..

أشكرُ الرَّب كثيراً لأنَّها لم تصبح قصيدةً لي، لم تصبح أكثرَ من سطرٍ في قصيدة، سطرٍ أنا وهي نعرفه جيداً ولكن، ما مِن أحدٍ سيلحظ وجودها هناك..

كانَ عليَّ أن أذهبَ لِفراشي ميتاً.. وأتمدَّدَ بانتظارِ بقيّةِ الموتِ كي يأكلَ بقائي، كانَ عليَّ أن أتركَ جواري، وأرحلَ مُبعثراً إلى جواري، وأنتظرَ قدومَ أشلائي، كانَ يَتوجَّبُ عليَّ أن أضمَّ المساءَ، وأنتظرَ بردَهْ يسري في كلِّ أجزائي.. أعتذرُ يا فؤادي على رحيلِكَ وبقائي، أعتذرُ على موتِك ونجاةِ أشلائي، وأعتذرُ لأنَّ ندباتِ حبِّكَ عاشت بلا الكثير من دمائي..

اليومَ، قرّرتُ أن أعودَ إلى غروري، لأنَّ الغرورَ كان وفيّاً أكثرَ منها، أكثرَ من الأصدقاء، وأكثرَ من الحياةِ أيضاً، سأعودُ إليه لأدخلَ ميلادي القادمَ بعد أيّامٍ، بنسختي القديمة، والخيالُ هو الرّفيق، والعُزلةُ هي الدّنيا..

آنذاكَ.. لم أكن أنتظرُ أحداً، ولا ألتفتُ للنّداءِ الأوّل، وأحياناً لا أستجيبُ لكلِّ النداءات، كنتُ غامضاً ومختلفاً جداً، كنتُ أخافُ كثيراً من كلِّ الأشياءِ الّتي لا تُخيفُ حتّى الأطفال، وخلفَ عُلوِّ أنفي يختبئُ الطِّفلُ الّذي يعيشُ في داخلي، كنتُ أحاولُ حمايتَه وأسعى فقط إلى أن يبقى بريئاً ولطيفاً..

لا أشعرُ بالنّدمِ لأنّي تنازلتُ عن غروري أمامَ فستانِها الأسود القصير، بل أشعرُ به لأنَّ الحبَّ لم يعد يليقُ بنا، لأنّي قلتُ لنفسي: اكتفِ بنفسِك.. لستَ تدري متى تكون وحيداً. ولكنَّني في الحقيقةِ لم أكتفِ..

كان صباحُ وجهِها يجعلُني أغارُ من نفسي، أغارُ حتّى من عيني الّتي تنظرُ إليها، في مشهدٍ يَنسُجهُ الشّرقُ ببراعةٍ كلَّ يومٍ، في كلِّ صباحٍ، كانت تمرُّ عليَّ بحواسها الخمسِ، ويستمرُّ الألقُ في وجهي وفي الدّنيا..

بالأمسِ كنّا معاً، شربْنا أقداحَنا معاً، شكَونا الحياةَ والقدرَ معاً، وربما كنّا على الفراشِ نشتمُ عُهرَ هذا الزّمانِ معاً، نمزّق أوراقَنا وأحزانَنا معاً ونضرِب موعِداً مع الفرحِ معاً، كنّا من أركانِ الوطن وتلكَ الآيةُ السماويّةُ الّتي نفتتِحُ بها راحةَ صدورِنا معاً، كنّا نحملُ الآهاتِ عن بعضنا البعض والأزقّةُ شاهدةٌ، ونضعُ ضِماداتِنا على جراحِنا معاً، كنّا وكنّا وكنّا... واليومَ، مررنا بمحاذاةِ بعضِنا كأنَّنا لم نكن. أنا اللّحنُ المعزوفُ على أوتارِها.. تَسمعُني اليومَ كالغُرباء..

كانت تصبُّ عليَّ العشقَ كما يَصبُّ الله البردَ في كوانين، ثم تجلسُ وتتأمّلُ مُعاناةَ البردِ في نارِ عشقِها ككنيسةٍ تَذُقُّ أجراسَها فخراً، كمأذنةٍ تصيحُ بكلِّ شموخٍ، ولم تدعني يوماً أرقدُ بسلام..

كنتُ ضعيفاً -أعي ذلك جيداً-؛ كنت ضعيفاً أمامَ تفاصيلِها الأنثوية.. رُغمَ نعومةِ أظفارِها، وبساطةِ مكياجها.. كنتُ أحاولُ أن أكونَ صديقَتها، وأحاولُ أن أجعل منها صديقي..

افترقْنا... مضى وقتٌ طويلٌ على ذلك، وحتّى اليوم لا أعرفُ لماذا أجبرَتْني على الفُراق، لماذا أرادتْ أن تكونَ لا شيء، حين قلتُ لها نحن يا ماريّة كلُّ شيء ونحن أيضاً لا شيء.

***

وفي تمامِ السّاعةِ الّتي لا أذكرُها أبداً، بعدَ حديثِنا الهاتفيِّ الطّويلِ، واللّيلُ الّذي لم نغفُ فيه لحظةً واحدةً، التقينا أنا ونهدُكِ، تحتَ عِراك الشَّفقِ والغسق.

عرفتُكِ، وعرفتُ أنَّ أجزاءَ الجسدِ قد تغارُ من بعضها في بعضِ الأوقاتِ، عندما رأيتُ غضبَ عينيكِ أمامَ انشغالي بنهديكِ..

لم أكنْ أفكِّر بالحبِّ، ولم أكن أتوقَّعُه أيضاً، فبعدَ كلِّ السّنواتِ الّتي قضيْتُها رافضاً كلَّ الحب -يا ماريّة- رُغم كلِّ التنازلاتِ الّتي قُدّمت لي، وبعدَ أن خرجتُ من مِحرقَتي السابقة مجرَّد رمادٍ ملويِّ الأذرعِ مكسَّر الأقدام، برودي فاضحٌ وإيقافُ إرجاعي للحبِّ هو حلّي الوحيدُ لإيقافِ أكسَدَتي من خلالِه، لم أكن أتخيّلُ أن أركبَ سفينةَ الحبِّ مُجدَّداً أو أنْ أُبحرَ فيه.

ماريّة.. لقد كان طريقي مُمهَّداً بالنّهودِ ولكن لم أكن أتركُ فرصةً لأيّةِ امرأةٍ أن تقومَ بمحاولةِ اختراعٍ للدّواء، لأنّي أعرفُ أنَّ الأدويةَ للأدواء وأنّ دائي مفقودٌ، لم أكن أتخيَّلُ أن أتركَ جنوني وعبثيّتي في يدَي امرأة، أو أن أكونَ مُلكاً لغيري، كنتُ أعرف أنَّ دخولي إلى الحبِّ مُجدَّداً يعني احتضاري مرّةً جديدةً بعد الألف، فالحبُّ الّذي كان كلَّ شيءٍ بالنّسبة لي أصبحَ عندي بالتَّعريفِ شهادةَ وفاةٍ يختمُ عليها الحنينُ كآخرِ الموظفينَ في الدّولةِ ولا يعترفُ بها أحد..

أنا الحلوُ والمرُّ في كعكةٍ مالحة، أنا العبدُ المعبودُ في ذاتِه، أنا السّيدُ الأوّل والوحيدُ في جمهوريّتي ومُفتيها وقاضيها ورئيسُ الحكومةِ، والشَّعبُ والأرضُ والعَلَمُ والقَسَمُ والدّستورُ والمُستعمِرُ أيضاً، أنا المولودُ لمجرَّدِ أنَّ أبي غازلَ أمي في ليلةٍ لم تكن ليلةَ خميسنا الشَّرقيّ بالتأكيد، وهناك يا عزيزتي في ليلةِ لِقائِنا نسيت كل هذا.. لم أكن أعرفُ أنّي جئتُ وأتيتُ بنفسي، وأني سأذهبُ دون أن أمضي..

لماذا كنتِ بكلِّ هذه الجاذبيةِ يا ماري؟ لماذا جعلتِ قلبي يخفِقُ لكِ خفقاتٍ لم تكن اعتياديةً؟ كنتِ رائعةً حقّاً في ذاكَ المساءِ، وكنتُ ضعيفاً أمامَ اختيارِ القدَرِ لي. أحياناً لا نستطيعُ رفضَ قَدَرٍ مترافقٍ بدقّاتِ قلب، أظنُّ ذلك مستحيلاً أو على الأقل يشبه المستحيل، كنتُ ضائعاً جداً وأفكِّر كيفَ أردُّ التّحيةَ على عينيكِ..

كان يوماً جميلاً جداً، وكان الرّهام يشبه رسالةَ حبٍّ مستمرةً من الأسقفِ إلى الأرضِ كالغيث، كرسالةِ سلامٍ يوجّهُها الشتاءُ الحقيقيُّ إلى صيفِ غُرفتي، كرسالةِ حنانٍ يُصدِرُها المطبخُ إلى طاولةِ المائدة، وكنتُ حينَ أقفُ بين هذا وذاك.. يقومان بِشتمي حتى يبلعني النومُ فلا يعودُ الرّهام يُقطعُ فيما بينهما..

مشيتُ معكِ بخطواتٍ ثابتةٍ، لكنَّ قلبي لم يكن كذلك، وكلُّ الكلامِ الّذي قُلناه في تلكَ اللّيلةِ، لازالَ يعيشُ في قلبي، كأنّنا قُلناه للذّكرى يا عزيزتي..

كنت أتأمُّل جلوسَكِ الغريبَ، هذا هو تماماً جلوسُ الأطفالُ المهمَلين.. كان عليَّ أن ألتزمَ حدودي، ألّا أتكلّمَ عن آلامي أو همومي لأنَّ كلامي هذا سيدفعُني إلى التعلّق بكِ أكثر وسيدفعُكِ لرؤيتي كطفلٍ مدلّلٍ لا يعرفُ الحياة، لكنّكِ كنتِ مُريحةً جداً، لم أستطع أن أصمتَ لأنَّني لا أصمتُ إلّا في حضرةِ الألم، وحينَها لم أكن أشعرُ بالألم، كانَ الارتباك يسيطرُ على كلِّ شيء، وبجهودٍ كبيرةٍ استطعتُ إخفاءَ نبضِ فؤادي، وغليان دمي.

كل ما أخبرتكِ به كان حقيقياً، فالألمُ يا ماريّة لا ينظرُ إلى عمرِ أحدٍ عندما يقرر غَزْوَهُ..

كنتُ أحتاجُكِ لأشعرَ بالأمان.. وأتناسى أنَّ هذا المكانَ ليسَ مكاني.. وأتناسى رفضَه لي وغربَتي عنه وغربَته عنّي، كنتُ أحتاجُكِ لأنتهيَ من تقلّبي بين جنباتِ الوردِ والنار، وأُنهيَ احتراقَ الأزهار، وها قد أتيتِ، بعدَ انتظار طويلٍ، وصبرٍ فاقَ كلَّ الحدود، أتيتِ ولكن ما الّذي جرى؟

لو كنتُ أعرفُ أنّكِ آتيةٌ، لكنتُ كتبتُ الأهدابَ قصائدَ عشقٍ ونثرتُها في الطرقاتِ، ولكنتُ استمتعتُ بالانتظارِ أكثر..

وقطفتُ ربيعَ العمرِ قبلَ أن يمضي.. اتصالُكِ الأوّلُ كانَ مخيفاً، كنتُ أسمعُكِ ولا أسمعُك.. كنتُ في الطّريقِ وكانَ الطّريق فيَّ، ولشدّةِ ارتباكي وصلتُ بسرعةٍ، هل تذكرينَ يا ماري كل هذا!؟

أحياناً يا ماريّة، نمضي لأنَّنا لا نريدُ أن نمضي، يجعلُنا انتظارُنا نمضي بدونِ أن نقومَ بأيِّ شيء انتظرناهُ، فالصبرُ مفتاحُ الفقدان ماريّة، ليست القصةُ قصةَ فرَجٍ أو أمل.

هكذا مضيتُ سابقاً وبدأتُ مشواراً جديداً في حياتي يحمِلُه الاعتياد، الاعتيادُ على كلِّ شيء، ومضتْ بيَ الأيّامُ حتّى وصلتُكِ، أعرفُ أنّي وصلتُ إليكِ مُتعَباً، ولكن ماذا أفعل؟ كان هذا قدري..

في ذلك اليومِ، حينَ اتّصلتُ بكِ لأطمئنَّ عليكِ عبرَ هاتفي النَّقال، كنتُ أبحثُ عنه، تخيّلي كنت أبحث عن هاتفي الذي كنتُ أمسكهُ بيدي وبدأتُ من خلالِه الحديثَ معكِ.. بل ووقفتُ أمامَ أصدقائي أُشيرُ إليهم أن يبحثوا عنه أيضاً، هذا أحدُ المشاهدِ الّتي جرتْ في غيابكِ.. هذه أثاركِ يا عزيزتي منذُ اللحظةِ البِكْر وما بعدَها.

الحبُّ يفعلُ كلَّ شيء، وحبُّكِ كان كبيراً، وأنا خُلقْتُ معجوناً بجيناتِ الجنون.. فبأيِّ مبررٍ أقفُ أمامَ ندائِه ساكناً، لا أدخُله ولا أنفجرُ فيه.. كيفَ أُقاومُ الحبَّ وهو المولودُ من رَحِمِ فؤادِكِ أنتِ يا حبيبتي..

لقد مررتُ بتجاربِ حبٍ كبيرة جداً، وكانت النهايات دائماً مأساوية للغاية، لذلك أصبحتُ أتجنّبُ الحبَّ عندَ مروري بمحاذاتِه، أصبحتُ أخشى النّظرَ في عينيه أيضاً، نحن يا ماريّة، عندما نمرُّ في حاراتِ الحبِّ، يستنزفُ الحبُّ كلَّ طاقاتِنا ونخرجُ منه ضعفاءَ محطّمين تماماً.. والمحظوظُ منّا يخرجُ وفي وجهِه نصفُ ابتسامةٍ تُواسي وحدتَه، وتشقُّ طريقَ التّنفسِ بينَ الحينِ والحينِ، فيبقى على قيدِ الحياة...

لا أدري من صنعَ الحبَّ بهذا الشكلِ، كلُّ ما أعرفِهُ أنّنا غالباً عرفَنا الشّكلَ الخطأَ للحب.

يومَها، تركتُ لكِ السّلاح، لم أكنْ أتخيّلُ أبداً أن أُقتلَ بالعيون، لا يمكن لأحدٍ يا ماريّة أن يتوقّعَ هذا، كنتُ أعرفُ أنَّ الأنوثةَ كأسلحةِ الدّمارِ الشاملِ، لكنّني نسيتُ ذلك، أو ربَما أغراني التَّناسي لتكوني أنتِ محطّةَ قلبي الجديدةَ والرّائعة، وعلى غيرِ عادتي لم أخترْ المقاومةُ، فحتّى المُقاومةُ تحتاجُ للرّاحة أحياناً وتأخذُ الإجازات..

في الحياةِ يا ماريّة علينا أن نعيشَ بشقاوةِ الصِّغارِ كي نعيشَ بهدوء، وأنا لا أعرفُ أن أكونَ إلّا طفلاً شقيّاً عابثاً، والأطفالُ أمثالي لا يقاومون الحلوى حينَ تكونُ على هيئة نهد..

في قلبي ضجيجٌ بعلوّ شاهقٍ، كلُّ ما حولي ينعمُ بالسّكونِ كبعضِ الملابسِ والكأسِ والدُخان، ربما أستثني ساعةَ يدي فقط بسبب دقّاتِها، وبين انفصامِ روحي وانفصامِ قلبي، عشتُ الحياةَ مهدّدةً بالحزنِ حتى أحببْتُه...

كنتُ أبحثُ عن يدكِ، عن الحنانِ المرسومِ في راحتِها عندما ترسو على جبينيَ السّاخنِ، أو فوقَ كتفي المُتعب، ويَنبُتُ من بعدها الوردُ، كنتُ أريدُها لأتفادى أرطالَ الحبوب التي أتناولها اليوم وكل يوم..

كنتُ أبكي كثيراً يا حبيبتي، وكانَ الدّمعُ يرطِّبُ فتوقَ قلبي، ومن يدري بحرقةِ الجرحِ الممتلئِ بالملحِ إلّا صاحبُه؟ غداً نموت يا ماريّة وتموت معنا جراحُنا فلا تقلقي، ربّما نكونُ بخيرٍ أكثر من الآن.

كنتُ أمرُّ عليكِ كلَّ صباح، وأهمسُ لكِ ألّا حبَّ كحبّكِ، لا قلبَ كقلبكِ، لا عينَ كعينيكِ، ولا صباحَ كصباحكِ، هذا ما كنتُ أفعلُه كلَّ صباحٍ في خيالي وعبرَ تمتماتي.. ولازلت...

لكنَّني كنتُ خائفاً، لن أنكرَ خوفي ولن ينكرَني أبداً، لطالما كنّا أنا والخوفُ أصدقاء، كنتُ خائفاً من كلِّ التّفاصيلِ لأنَّني أعرفُ أنَّ التفاصيلَ تبدو رائعةً في البداياتِ وتختلفُ في النهايات.

كنّا نقطفُ التوليبَ ونُهدِيه لبعضنا، وكانَ التوليبُ يقطفُنا ويهدينا أيضاً لبعضنا، وتستمرُّ الحياةُ هكذا.. بروعةِ السّطرِ الأوّلِ المكتوبِ في رسالةِ قدرٍ جميل..

لا أذكرُ أنَّنا شربنا النَّبيذ، لكنَّ النبيذَ كان يَشربُنا كلَّ يوم، كنّا لهُ أداةً للسُكْرِ يتمتّعُ بها، ويُسكِرُ بأصحابِ الحبِّ أصحابَ النبيذ أكثر.

في اليومِ التّالي للقائِنا الأول، بدأتِ ترسُمينَ الحياةَ، كنتُ أبحثُ عنكِ ولا أعرفُ لماذا، أردتُ رؤيتكِ، لكنَّني لم أتوقعْ أبداً حضورَ فستانِكِ الأسودَ الّذي أخبرتُكِ عنه، واعترفتُ بلفتِ انتباهي إليه..

كان ارتداؤه لكِ أو ارتداؤكِ له دعوةً قلبيةً واضحةً للحربِ أو السّلم، الغارةُ الأولى كانت سوداءَ تماماً بفعلِ الفستان، الثانيةُ نفَّذها الثغرُ المبتسمُ عندما نظرتُ إليه، وبعضُ النّظراتِ أشهى من القُبَل، الثّالثةُ نفّذَتْها العيون، وأمامَ العيونِ رفعتُ كلَّ الرّاياتِ البيضاءَ الّتي كانت بحوزتي.. مختاراً السّلم.. استسلاماً.

من النّادرِ جداً يا ماريّة.. أن يفشلَ أحدُنا في بداياتِ قصةِ حبٍّ، ومن الصّعبِ جداً أن ينجحَ أحدُنا في نهاياتِ قصّةِ حبٍّ، هذا أحدُ القوانينِ المثبَتُ بالأقدارِ في رياضياتِ الحياة، لا أعرفُ لماذا..

لكنّنا بالتّأكيدِ نبدأُ بطريقةٍ ونتغيّرُ في مرورِ الأيّامِ، إلى أن ننتهي بطريقةٍ أُخرى أو ننتهي بلا طريقة.

من الغباءِ الكبيرِ أن نعتقِدَ أنَّ الأشياءَ تستمرُّ، لا شيءَ يستمرُّ كما بدأَ يا ماريّة، أظنُّ أنَّ الأوانَ قد حانَ لنؤمنَ في ذلك..

يومَها جلستُ بينَ أحضانِ حبّكِ كثيراً، أنا الّذي لم أخضعْ للحبِّ منذُ سنواتٍ عديدة، كان حبُّكِ أكبرَ من الرَّفضِ، وأكبرَ من القبولِ، وقعتُ في حَيرتي، رُغمَ اعتيادي على نظرةِ الإعجابِ وابتسامَته الصغيرة، لكن لم أواجه نظرةً كنظرَتِكِ.. استطعتِ وضعَ الإيقاعَ الموسيقيّ لنّبضيّ، واختارَ نبضي خيانتي، كيفَ منحتِه الهواءَ مجدّداً يا حبيبتي، والقوّةَ على التَّمرد؟؟ أنا الّذي لم أعتدْ على تمرّدِ النَّبض.

كنتُ متردّداً جداً، أتخبَّطُ بينَ الحاضرِ والماضي، بين الظِّلِّ واللا ظلّ، بينَ ما أملِكُ الآنَ وما ملكتُ البارحةَ، قضيتُ أسبوعاً كاملاً لأستطيعَ استيعابَكِ، أو استيعابَ ما كانَ يجولُ في رأسِكِ.. هل السّيفُ الّذي أطلقَهُ وجهُكِ عندما رأيتكِ كان دعوةً للحب؟ الحبَّ أو حالةَ الحبّ؟ أم ممارسةً الحبّ..؟ لا أدري ولكنْ لماذا أنا يا ماريّة، لماذا؟

كنتُ أشعرُ بسعادةٍ كبيرةٍ عندما أخبرتني أنّكِ تَشعرينني كالدّرويشِ عندما أكتب، لكنَّني أحبُّ القبّاني أكثرَ وأحبُّ حليم، أحبُّ صوتَه ولفظَهُ عندما يقول: "أهواكْ" مثلاً، أو عندما يقول: "يا خليل القلب يا حبيبي" أو "نعم يا حبيبي نعم.. أنا بين شفايفَكْ نغم، أيامي قبلك ندم..

وأيامي بعدك عدم" وأحبُّ أم كلثوم أيضاً، كنتُ أفكّرُ أن أرتّبَ من أغانيها رسالةً واحدةً كما فعلتُ عندما كتبتُ رسالتي إلى أحدِهم في ميلادِه الأخير، رسالة كهذه يا ماريّة:

"أنت عمري وأمل حياتي.. دارت الأيام وحكم علينا الهوى.. فغداً ألقاك يا غائباً عن عيوني الأمل، أنا في انتظارك والقلب يعشق كل جميل.. يا بهجة العيد السّعيد أخذت صوتك من روحي والحب كلّه والحب كده وهو صحيح الهوى غلّاب.. أنساك يا مسهّرني والحبّ أنت والرّضا والنّور ونجوم الليل شهود على ألف ليلة وليلة.. هذه ليلتي ومن أجل عينيك كل ليلة وكل يوم ليلة حب.. أروح لمين بعيد عنك حيرت قلبي ودليلي احتار مرّت الأيام سهران لوحدي.. مين إلي قال هجرتك مش ممكن أبداً.. طالت ليالي البعاد سكت والدمع اتكلم خيالك كان في المنام حلمي فزارني طيفك في المنام وفتنت بلحظك الفتاك.. أنا على كيفك تشوف أموري وتتحقق.. ياللي أنت جنبي ياللي شغلت البال ياللي كان يشجيك أنيني أقولك إيه عن الشوق وسيرة الحب.. إيه أسمّي الحب وابتسام الزهر.. جنة نعيمي بهواك حقك أنت المنى والطلب ويا ريتني كنت النّسيم.... أقبل الليل يا حبيبي وأنت عمري وأمل حياتي"

لكنْ هلْ سأكتبُ لكِ رسالةً كهذهِ يا ماري؟ يوماً ما سأخبِرُكِ عن حجمِ ذاكَ العذابِ الّذي أكلَني وجعلني أتآكل، لكنّني لن أستطيعَ حتماً قولَ الحقيقةِ كاملةً لكثرةَ مرارتِها، لقد شعرتُ أنّني قيدُ الولادةِ من الخاصرةِ اليُسرى للألمِ حينَ رأيتُ في عينيك (بلسم).. بلسمُ الّتي أصبحت صديقتي بعدما كانت حبيبتي.. وعشتُ معها عُزلتي رُغمَ كلِّ المسافاتِ الطويلةِ الّتي كانت تفصِلُنا، وأصبحتُ بعدَها أرفضُ كلَّ علاقاتِ الحبِّ أو أفشلُ فيها..

رُغمَ أنّني لم ألتقِ بها منذُ أكثرِ من خمسةِ أعوامٍ، ولم أتحدَّث إليها إلّا في مراتٍ قليلةٍ، لكنّها لم تغب عن خاطري أبداً، لن أنسى أبداً كيفَ وقفتُ أترقبُّكِ ولمحتُها في بريقِكِ وتحرُّكِكِ.. رؤيتي لبلسمَ من خلالك، زادتْ تخبّطي أكثر، هذهِ حقيقةٌ لا أستطيعُ نُكرانها...

كان أثرُكِ جميلاً، كالهدوءِ العائمِ في ليلٍ، كانتحارِ المؤلّف من أعلى قافيةِ القصيدةِ حباً، كالأملِ المزروعِ في عنوانٍ حزين، كعِناقي أنا والعِطْرُ والأيّامُ والأحلامُ والحمام، كاستنشاقي لِثاني أوكسيد الحب، كقبلةٍ سماويةٍ على جبهةِ فتاةٍ يتيمةٍ، كالحريرِ في سرير، والزنبقةُ على الكتفِ تبوحُ بلا خجل..

من أنتِ، وماذا أفعلُ أنا..؟ والعنبُ على وجنتيكِ يشيخُ، وفي الخصر حكاية ترويها السّاقُ للسّاق.. تُثمِلُ البحرَ في غفلةِ الأمواج، ما حظّ تلك الوسادةِ تنامُ على نهديكِ والنهدُ في ترفٍ.. وعُلَبُ الماكياج تركضُ.. تقفُ.. وتصطفّ.. لعلَّ يدكِ تحطّ عليها صُدفةً أو عن قصدٍ.. وخطُّ الكُحْلِ حينَ يلوجُ بالأهداب، ما حظّ مرآتكِ يا ماريّة تراكِ في الصباح وفي المساء.. بعدَ الظّهيرةِ وقبلَ الظّهيرةِ والفجرَ والعصرَ والغروب.. تبتسمين أمامَها وتقبّلينها وتشتمينها.. ما حظُّها يا ماريّة بالله عليك أخبريني ما حظّها؟.

أذكر جيّداً كيفَ قمتُ بتقبيلِ وشاحكِ الّذي كانَ بجواري، لكن لم أكنْ أعرفُ أنَّ مثلَ هذه القُبَلَ تُدفَعُ أثمانُها بالأعمار، وأعترفُ أنَّي شمَمْتُ رائحتكِ مرّةً واحدةً.. وفي المرّاتِ التاليةِ لم أشعر بها، لأنَّها سكنَتْ في قصباتِ صدري، كنتُ أعرفُ أنَّها على مقربةٍ منّي عندما أشعر بانشراح صدري..

إذا أردتِ أن تتعرَّفي على حالتي، انظري في قلبي.. فكّري في دفاتري المتواريةِ عن الأنظار.. صدِّقيني، لا دخل لعينيَّ في ذلك، لأنّ مولّداتِ دمعِها قد نُسفتْ ودمرتها الحياة، لا دخلَ لوجهي كلِّه..

لأنَّنا عندما نشعرُ بالحزن يا ماريّة نضحكُ أكثر، لا دخلَ لملابسي ونُكاتي، في المرّاتِ القادمةِ انظري إلى دُخاني لكن لا تسألي عن أسبابِ الحريق.. لأنّي أحبُّ الاحتراق بصمتٍ بالغٍ.. أحبُّ لذّةَ هذا الاحتراق..

كنتُ أمشي كثيراً.. باحثاً عن أيّ شيءٍ يحتويني، عن أيَ مكانٍ.. عن أيَ زمانٍ.. عن أيَ تاريخٍ أو أيّ ذِكرى، كنتُ أريدُ هديّةً من هدايا الحبِّ للنّسيان.. لم أتخيّل أبداً يا ماريّة أن أكون أنا هدية النّسيان للحب، أي أن يُقطّعني الحبُّ إرَباً ولا يُعينَ قلبيَ النّسيان.

أقبلَ اللّيل يا عزيزتي، والرَوح تأبى النَومَ رافضةً إيَّاه رفضَ الموتِ للحياة، أتمدّدُ الآنَ ببرودٍ هائلٍ.. أنتظرُ نومَ النّومِ واللّيل، أنتظرُ حتى تشرقي على دنيايَ فأغفوَ بأمان.

الحبُّ يا حبيبتي هوَ السؤالُ الآتي بغيرِ موعدِه.. والرَّعشةُ المولودةُ من الأعماق تُربِكُ الشِّفاهَ والأصابعَ بإتقان.. هو التَّردّدُ والخوفُ واللّا خوف، الحبُّ هو قُبلةٌ سُرقَتْ من شفتَي القلبِ ولم تنم بعد ذلك، الحبُّ يا ماريّة هو أن نقضي على الأدراجِ ركضاً لا صعوداً يا عزيزتي، وألّا أحتاجَ للكؤوسَ أصلاً عندَ الشُّرب، لا أن أشربَ من أحمر شفاهك المستلقي على جدار الكأس..

كانتِ الأيّامُ تمضي بسرعةٍ في حضرتكِ، رُغمَ أنَّي كنتُ أعيشُ يومي كاملاً منَ السَّابعةِ صباحاً حتى منتصفِ اللّيل أو ما بعدَه، كنتُ مُصاباً بالمتعة، أستمتعُ بكلِّ الأشياءِ الممتعةِ وغيرِ الممتعة.. كنتِ كالخلايا السّرطانيّةِ في الهجومِ والتَّمدُّدِ والانشطارِ يا ماريّة و لم تكوني مجرّدَ حبٍّ فقط، كنتُ أشعرُ بالهدوءِ عندما أكونُ معكِ..

واليومَ أنتِ في ذاكرةِ قلبي وأظنّ ذكراكِ باقيةً إلى الأبد، لأنَّني لا أحبُّ خيانةَ الماضي، ولن أتركَكِ تخرجين من هناكَ أبداً..

كنتُ أكتبُ لكِ الرّسائلَ والحروفُ نيامٌ، والأوراقُ في سباقٍ مُميتٍ للعيشِ تحتَ يُمنايَ، دونَ أن تفكّرَ بالمصيرِ فيما بعدَ العيش هذا، وعرفتُ يا حبيبتي أنَّ الورقَ يشعرُ بنا كما نشعرُ نحن بأنفسنا.. وأظنُّه ينامُ متألّماً.

- شبك؟.

- ولا شي.. عم فكّر، أو بالأحرى عم أتذكّر.

- بشو عم تفكّر؟؟ وشو عم تتذكّر ميّار؟.

- بصراحة بمبارح.. كأنّو ما نمنا ما؟.

- ما.. بس كأنَّك مصدوم!.

- نوعاً ما.. حكيلي مبارح كان كتير صح، كأنّك من زمان بتعرفيني.

- هههه.. لأ ما بعرفك من قبل بس بحلّل شخصيّات.

- محلّلة عظيمة على فكرة.

- من بعدك يا حكيم...

- هلق كل الدكاترة النفسيين هيك؟.

- لأ طبعاً أنا غير.

- هههه تسلميلي.

- لفتني موضوع إنك بتكتب، من زمان بتكتب؟.

- مو من زمان كتير دكتورة.. بس بقدر قول إني عم أتطّور مع الوقت وشكراً عالمعنويات.

- ممكن ما تتعامل معي على إني صدمة بالنسبة إلك.. صحيح في فارق عمر بيناتنا بس أنا بالنهاية إنسانة عادية وعايشة حياة طبيعية كتير.. برّا المركز ماني دكتورة.

- بدي شوية وقت، الصدمة مو أنت بشخصك، الصدمة هي كلشي بس المفاجأة حلوة خاصةً إنّو نحنا مرتاحين.

- أدّيه حكينا مبارح؟ يمكن خمس ساعات!.

- لا أكتر، تسع ساعات وكم دقيقة.

- حافظ ما شاالله عنّك، بتعرف ما حسيت فيهن.

- لما بكون الإنسان مرتاح مع حدا ما بحس بالوقت ماريّة.

- عفواً، شو قلت؟.

- لما بيرتاح الإنسان مع حدا ما بحس بالوقت معو يا ماريّة.

- طالع الاسم معك حلو كتير.

- أهاا عم تشتغلي فيني يعني.

- يعني هيك شي هههه.

- تسلم هالضّحكة.

- الله يسلمك ويحميك يا عزيزي.

- مبارح ما كنتِ قبلانة شوفِك برّا، استغربت اليوم لمّا لقيتِك ناطرتيني.

- إيه مبارح راح مع مبارح واليوم حبّيت شوفَك.

- هيك حكايات الدني بتصير.

- صح، موافقة أنا.

- عالخطبة؟.

- لأ ع حكايات الدني.

- إيه الحمدلله.

- لنكون مو عاجبينك حكيم.

- لأ ولو، من بعدك نحن ماري.

- كأنّك ملبّك.

- إيه شوي.

- ليه طيّب شبك؟.

- قلبي والله.

- شبو عم يجعك؟.

- لا والله بس شكلو تفركش.

- ههه إيه سلامتو قلب الحكيم.

- لأ، هلق بخجل.

- هههه على أساس إنّك خجول يعني.

- إيه بس شوي شوي بنسى.

- شو بتنسى.

- الخجل يعني.

-هههه، إذا هيك معلش.. من زمان بتأركل؟.

- من لمّا تعرّفت على الدني منيح.

- وإيمتا تعرّفت عليها.

- أيام البكالوريا.. والكلّية ومع الوقت وهيك.

- طيّب طيّب خلص خود راحتك.

- هاتيها.

- شو بلشت تشتغل فيي شايفة.

- إيه أنا تلميذ نجيب بتعلم بسرعة.

- مممم برافو.

- ميرسي.

- عندك مشكلة إذا قعدت هيك.

- لأ طبعاً عادي.

- ما حدا بيحكي هون.. لأنو الكل بيعرفك ما شاالله.

- إيه بيعرفوني.. بالعادة بيحكوا بس لأنك على هي الطاولة ما حدا رح يحكي.

- طاولة الدكتور يعني.

- هههه إيه هيك شي.

- مين الصبيّة يلي سلمت وهي فايتة.

- هيك دغري.

- إيه دغري.. عندك مانع؟.

- لا والله ما بستخدمو.

- هههه.

- رفيقتي.. بتكون الشلّة مجتمعة جوا.

- واو عندك شلة شباب وصبايا.

- ايه شلة صبايا وأنا الشباب فيها.

- يا حبيبي.

- يا نعم.

- لأ قصدي مو هيك.

- إيه بلا.

- طيّب.

- بتعرفي إنّو عيونك بتحكي كتير.

- بعرف، بس مو متل عيونك.

- إيه أكتر من عيوني.

- ليش أنت هيك ميّار؟.

- كيف يعني هيك؟.

- ماابعرف فيك شي غريب.

- بعدك ما شايفة شي لسّه، بس إجمالاً ما بعرف السبب هيك خلقة الرب.

- بكفي يلي حسّيتو مبارح، بتعرف شو.

- لأ، خبريني.

- لما خبروني بالمركز إنك حابب تسأل عن شي، والتقينا كرمال الحالة يلي حكينا فيا.. استغربت إنو أنا ما شايفتك قبل بالمركز.

- يمكن الصدفة يا ماري.. عادي يعني، أنا كمان تفاجئت إنو في أخصائية بالطب النفسي موجودة بالمركز، بالمناسبة لما عملتلك إضافة عالفيسبوك كنت حابب اسألك عن الحالة وتردَّدت.

- وبعدين.

- بعدين حكيتِ أنتِ وما عاد فكّرت بالحالة.. غرقنا بالحديث.

- كتاباتك بتشبه كتابات محمود درويش.

- عنجد؟.

- إيه عنجد، أنا هيك حسّيت.

- كتير منيح هالكلام.

- من زمان بتكتب؟ آه صح سألتك قبل شوي.

- إيه تمام.

- بتعرف تأخرّت عالبيت.

- مممم كيف بدّك ترجعي هلق.

- بطلب تاكسي.

- حقك عليّ أخرتك.

- لا بالعكس مبسوطة.

- كتير منيح فرّحتيني.

- خليهن يجيبولنا الحساب.

- مافي داعي أنا بقيان.

- بعرف من مبارح إنّك ما بتحب تدفع عن حدا.

- ما بحب، ما حدا مجبور يدفع عن حدا.. بس أنت اليوم بضيافتنا.

- هههه طيّب، مع إنّو بيعتبروها رجولة ناقصة إنّك ما تدفع عن الصبية يلي معك.

- أي يلي بقيس الرجولة بالمصاري.. هيك بيعتبر.

- شو قصدك حكيم، أنا هيك؟.

- لأ، قصدي يلي حابب يعتبرها رجولة ناقصة يعتبرها.. ما نحن كلنا علل ما حتوقف هون.

- أنتوا الرجال يعني.

- لأ، نحن المجتمع رجال ونساء يعني.

- هههه.. ثواني وبرجع.

أمسكت هاتفَها كأنها أمسكت قلبي، تمنّيتُ ألّا يجيبها أحد، وعندما رأيتها تتحدّث خابَتْ أمنيتي.... أنهتْ المكالمة بسرعة وعادَت إليّ عودة الهواء إلى الرّئة...

- مشي الحال؟.

- إيه مشي، سمّعنا شي لوقت ما يجي الشوفير.

- مابعرف غنّي والله.

- لأ.. شي من كتاباتك.

- طيّب يلّا.

مَطــلْعُ قصـــيدتي تائِــةٌ   والنّــايُ إذا غَنَّــى يَنـام..
ففـي دَنْـدَنَـةِ الحُـبْ كنّـا..   وكــانَ يَــرْقُصُ الحَمــام
لا تَجـــــْحَدَنَّ بنـــــاظري   فــالعينُ كــلامٌ وأَحــلام
يـا أُخْـتَ الهـوى والــهوى   عربـــيٌّ وذاكَ السّـــلام
بَذَلْــنا القلــوبَ بِكرهــا..   والــروحُ ضَـجَّتْ غـرام
فمـاذا أنـتِ فاعلـةٌ؟ ومـا..   نحــنُ نُلْــوى أو عِظــام
وماذا أنتِ قائلةٌ؟ حينَ ..   يَـصبُغُ الصـمتُ الكـلام
إذا أردتِ البُعدَ اهْجُري..   هــذا شـــأنُكِ والهيـــام
باقــونَ نحــنُ هــا هُنـا..   فـنحنُ بالأصـلِ حُطـام
شرفٌ أنْ نموتَ عِشْـقاً..   أو نكــونَ فيـــهِ أيـــتام
تميــلُ الــروحُ مُدَلِّـــــلها   فيَلْـــقى مَكانـــةً ووِئـــام
تميــلُ الــروحُ مُدَلِّـــلها..   فيَــزرعُ بـــثوبِها سِـــهام
كأســـــي ودُخــــاني..   وأنــا والطيــفَ والرُكــام
كلّــــنا قتلـــى حـــبٍ..   ومن أحبها كيف يُلام؟.

خريف

- بتجنّن.

- عيونك يلي بتجنّن ماريّة.

- صار الشّوفير برا رح أطلع.

- طمنيني بس توصلي.

- ماشي.. سلام.

- سلام.

(٣)

أنتِ الّتي لم تغادري أجزائي منذُ زمنٍ بعيدٍ.. ثم أموت في ذكراكِ فجأةً، أنتِ الّتي غادرتِ وغادرَتْ معَكِ أجزائي...

ميّار

كنّا وكان الحديث بيننا والصمتُ وفنجانُ قهوةٍ وكأسُ ماء.. والنّهدُ يقتلني.. والنّهدُ الآخر أوّلُ الحاضرين في تشييع جُثماني.. وهو الوحيدُ الذي بقيَ أمامَ مثوايَ الأخير يدعو.. والحليبُ دليل بُكاء..

كنتُ أجلسُ على طاولةِ الطَّعام، أتناولُ الحبَّ، وأذهبُ للتّسوقَ فأشتري حُبَّاً، أنامُ أحلمُ بالحبِّ، وأصحو على الحبِّ، منذُ يوم لقائِنا يا ماريّة، والسَّعادةُ تسيطرُ عليَّ.. والغرورُ يسيطرُ على قلبي..

كنتُ أمشي كالسُكارى -أنا الّذي لم أتناول النَّبيذ طوال حياتي- أتمايلُ بينَ الجدارِ والجدار، وأصرخُ ألّا تخمّروا العنب.. فلا نبيذاً من بعدِ روحكِ يا حبيبتي، ولا حبّاً من بعد حبّكِ..

كنت حزيناً جداً، بلا أيّ سببٍ للحزن.. وبلا أيّ هدفٍ من الحزن.. لا أعرفُ بالضَّبط بماذا كنتُ أفكر أو لماذا كنتُ أفكر، كنتُ أتمزَّقُ كثيراً يا ماريّة، كدتُ أختنق بسيفٍ من نارٍ يتوسّطُ أضلاعي، كلُّ ما كنتُ أتمنّاهُ هو أنْ أودِّع العالمَ بطريقتي.. لعلَّ رسائلي تصلُ إلى أصحابها.. وأتركُ في هذا العالمِ ذكرى قُبلةٍ وذكرى حُب.

قبلَ الفراق يا ماريّة نظنُّ أنّنا لن نعيشَ.. كنتُ أُحتضَرُ أربعاً وعشرين مرةً في اليومِ الواحد، بل وأظنُّ احتضاري كانَ لأربعِ مئة وأربعين مرةً بعد الألفِ في اليومِ الواحد، لكنَّ الحياةَ تستمرُّ ونستمرُّ نحن معها، ربّما لا نحبّ فيما بعد، لكنّنا نعيش.. نعيشُ في كلِّ الأحوال يا حبيبتي..

كنتُ أحاولُ أن أكونَ طبيباً ناجحاً، لكنّني فقدتُ روحَ الطبِّ أيضاً يا عزيزتي.. عندما عرفتُ أنّ الطبَّ يقفُ عاجزاً أمامَ حسَرَاتِ الرّوحِ وآلامِ الوجدان، وبرغمِ ذلك فإنّني أكملتُ الطريق لأنّنا نعيش كما قلتُ لكِ في كلِّ الأحوال..

كنتُ أقفُ بينكِ وبين قلبي، أدفعكِ عنه وأدفعهُ إليكِ.. ثم أدفعهُ عنكِ وأدفعكِ إليه، أحبُّكِ ثم لا أحبُّكِ، هناك أشياءٌ تحدثُ في الحياة بلا سبب، لكنَّ انعكاسَها على الحياةِ يكون قاسياً جداً.

لا أعرف كيفَ يمكنُ للسّفينةِ أن تُبحرَ بلا شراع.. نحن هكذا يا عزيزتي.. انظري في تاريخِنا.. فكّري في عاداتِنا.. نحن فعلاً هكذا، عاداتُنا السَّيئةُ هي تفاصيلُنا الحزينةُ ولكن بشكلٍ أخر..

كنتُ أخافُ أنْ أفقدكِ فأفقدَ اتّزانَ الأجوافِ الأربعةِ الّتي تعيشُ في قلبي، وأفقدُ معها كلَّ الأشياء، كنتُ أبحثُ عن صدرٍ يُمسك بي، يشدُّني إلى مقطعِ حنان.. يُخبرني أنَّ الحياةَ لن تنتهي هنا... كبرتُ يا ماري ولم أعد أحتاجُ الكلماتِ والجملَ المحبوكةَ بالنَّصائح، كبرتُ وأنا أكرهُ حياةَ الكِبار لأنَّهم يَنظرون إلينا حسبَ الرّقمِ المجاور لكلمة العُمْرِ في أوراقنا الرّسميةِ فقط، دون أدنى اهتمامٍ بحياتنا الشَّخصية وما مرَّ علينا من حبٍّ أو قُبَلٍ أو نبضٍ أو حُزن..! لا أعرف يا عمري هل نحنُ فعلاً لم نرَ شيئاً من الحياة بَعد...، حسبَ تعبيرهم؟

كنتُ أعيش حياةً معقدةً جداً، الكثيرون يعيشون حولي مع الكثير من الأشياء.. كنت أعيشُ اللّيل أكثر.. رُغمَ أنَّه يخنقُني، يُكبّلني..

لكنَّه أجمل وأكثر هدوءً.. لا أعرفُ لماذا يُخيفني النّهار، ربما لأنَّ الدّمع المولودَ في النّهار يُكشَفُ بسهولة، كنت أتنفّس أوّل الأوكسيد لأيّ شيء، أو ثانيه.. لا أعرفُ كيفَ كانَ يضيعُ منّي أوكسجينَ الأشياءِ..
في الحقيقة أنا لم أفكّر في حياتي كلِّها بالمخدّرات أو حتى الكحول، لكنّني أدمنتُ اليأسَ.. أدمنتُ الحزنَ، ولم أكن أعرفُ أنّني على المدى البعيد، سأتمنّى لو أنَّني أدمنتُ الكحولَ أو المخدّرات..

حينَ عرفتكِ، في لحظةٍ ما، شعرتُ أنَّ حياتي ستترُكُ تعقيدَها، كنتُ في غاية الفرحِ، ولكنّي لم أكن أتخيّل أبداً يا ماريّة أن تصبحي أنتِ العقدةَ الأكبرَ في الحياة...

أقتلوكِ في قلبي، أم قتلوا قلبي بكِ؟ لازلتُ أتساءلُ منذ وقتٍ طويل ولم أجدْ أيّ إجابة، أذكر جيّداً كيف رأيتكِ في لقائِنا الأخير عندما قلتِ لي: "ما قدرت روح بلا ما شوفك، ما بعرف ليش بس ما طاوعني قلبي".. ألم يكن هذا حباً يا ماريّة!؟

بعد اليومِ السّابع من لقائِنا الأوّل بدأتُ أعرفُ أن ما أعيشُه حقيقيٌّ.. واقعٌ ملموسٌ وليس ضرباً من الخيال، بدأ قلبي يشعر بالثبات، وبدأتِ تحتلّين مكانَ الجميع في حياتي.. فرداً فرداً.. لم أكن قادراً على تصدّي ذلك الاحتلال، وكي أكونَ صادقاً أكثر، كنتُ خائناً لِصالح احتلالكِ.. خنتُ نفسي.. خنتُ قلبي بعد صمودٍ طويل.

كانت الأيّامُ جميلةً، بمعنى أدّق.. كنتِ أنتِ جمالَ تلك الأيّام، كنتُ أحاولُ أنْ أكتبَ لكِ كثيراً، لكن ثمّةَ شيءٌ غامضٌ جداً كان يمنعني من الكتابة، لذا كنتُ أقف أمامكِ وأمام كلماتي عاجزاً في أغلبِ الأحيان.

كنتِ أوّلَ عمليةِ تنفسٍ أقومُ بها حينَ أصحو، وآخرَ تنهيدةٍ أذكرُها قبلَ النوم، في ذلك الوقتِ بدأتِ تتسربين في كل أنحاء روحي..

وكأنّني فتحتُ صنبورَ ماءٍ داخل جسدي.. يُغرقني ويُغرقه، وما الحبُّ يا حبيبتي إلا الغَرَقُ، كانت الطرقُ كلّها مفتوحة أمامكِ.. لا أعرفُ سببَ ذلك.. لكنّه كان غريباً..

كنتُ أظنُّ أنّني وجدتُ برّي.. كنتُ أظنّ، ونحن يا حبيبتي نظنّ حتى نعيشَ في الظنّ ونعامِلُه على أنَّه الواقع..

كنتُ حينها أعيشُ كالنّدى على أوراقكِ، وأطفو في بحر عينيكِ فأُبصرُ العالمَ الأجمل، أطوفُ حول الخصر أقرأهُ وأسجدُ سجودَ الحبِّ على الأكتاف، حينها بدأتُ إدمانَ الحبوبِ المُخدّرةِ ولم أستطعْ النومَ بعد ذلك إلا في بهوِ عينيكِ..

واليوم أنظرُ في صورتكِ وأبتسم، ثم أمضي في رحلةٍ من الصّمت والتوحّد والّلا مُبالاة، لا أريدُ في مكانكِ أحداً.. هكذا أريد ويُريد قلبي.. التوحّد حتى الموت، كي لا أنساكِ ما حييت، ولا أنسى صباحَكِ الّذي كان كالقبلةِ على خد مَيسمي، وعصرَكِ الذي كان إعصاراً، وليلَكِ المملوء بالليلك، ليلكِ الّذي كنتُ أجلسُ فيه أحاورُ السّماءَ، أسألُها عن السّحر السّاكن في جفنيكِ.. وأسألُ الله كيفَ حرَّمَ المُسكراتِ وخلقكِ.. وجعلَ خمرَ الكرَز موَزّعاً بين قدَّكِ ووجنتيكِ وكعبيكِ، كنتُ أحاول سحب الكلمات من البحر لأصنع منها أطواقاً لكِ تلفّ عنقكِ، وتبقى هناك طويلاً.. بعضها تلثمكِ والبعضُ الأخر تسبّحكِ.. لأنَّ هذا النوعُ المملّحُ من الكلمات يا حبيبتي، لا يُمحى مع مرور الزمن.. وإن محاه الزمنُ تبقى أثار ملحه إلى الأبد..

اليوم أكتبُ لكِ في كلِّ ليلة، أو أكتبُ عنكِ، لعلَّ قلبي يقولُ ما نسي القبّاني قوله في الغرام، ولعلّ وجهي يغنّي ما لم يغنّيه القيصرُ عن الحبّ، وأعودُ لأحيا في ذكراكِ، أنت الّتي لم تغادري أجزائي منذ زمن بعيد.. ثم أموتُ في ذكراكِ فجأة، أنتِ التي غادرتي وغادرت معكِ كلُّ أجزائي..

اليوم أكتب بالدمع كواليسَنا، وما نعيشُ فيه خلفَ ستارِ الحبِّ، وتحت عنوانِ الأمل.. لا للتشويه بل للتّوضيح، لأدعوَ كلَّ الّذينَ لم يحالفهم حظُّهم في عشقهم.. إلى هدوءِ القلب، وأَقسمَ رغيفَ الألم فيما بينَنا، محتفظاً لنفسي بالقطعة الأكبر..

اليوم أعيشكِ في خيالي كما كنتُ أعيشكِ في حاضري، وأحوّلُ كلَّ قطعةٍ منكِ إلى قصيدة.. وأترُكُ لنهديكِ مَهمّةَ كتابةِ العناوين، فهما أقدرُ منّي على الأدب والقيادة، وأجلسُ خلف طاولتي مُمسكاً قلمي ومتسائلاً هل أكتب الحبَّ لكِ أم أكتبكِ أنتِ له، ماذا أفعل يا ماري وقد أصبحتُ عاجزاً عن كل شيء.. بل عن أي شيء؟

وأذهبُ لأشربَكِ في دخاني، وأراكِ بالدّخانِ ترتسمين أمامَ جدارِ غرفتي الأحمر، بأحمر شفاهكِ الشّفاف ولونِ الكُحل المعتاد..، بكلِّ التّفاصيل الّتي حفظتُها وحفظَتني عن ظهرِ قلب، وأبوحُ للورق بكلِّ الأسرار، والغيثُ يعزفُ سيمفونيةَ الشّتاء على زجاجِ نافذتي، ونحنُ في منتصف الصّيف..

اليوم أُجاملُ القمرَ كثيراً حين ينظرُ إليكِ.. فأنا أخافُ عليكِ من الحسد.. وأصبُّ عليه كأساً من يُنبوع أحزاني، فأرديه صريعَ الواقعِ الّذي لم يكن يفكّر فيه البتّة، أتدرين ماري.... لم أكن أتخيّلُ أبداً أنْ أحتاجَ كلَّ هذا الوقت لأكتبَ تفاصيلَ يدكِ الناعمة، أو أقومَ بالصلاة لأجل عينيكِ، أو أغنيَ للألمِ لا للحياة، ولأنَّ الذكريات تولَدُ من نِطاف الأخطاء.. أنتِ يا حبيبتي شهدُ أخطائي الّذي ولَّد لي أحلى الذّكريات وأكثرها إيلاماً على الإطلاق.

اليومَ أجلسُ مع الفوانيسِ، وأحكي لها قصّتَكِ وحياتَكِ.... حتّى الفوانيسُ يا ماريّة مستمتعةٌ بذكرِ اسمكِ الواقفِ على لِساني دائماً.. وبروحكِ الّتي تعيشُ في داخلي، وبذكراكِ يا حبيبتي....

اليومَ أجلسُ مع الفوانيسِ، أخبرُها كيف كنت خلالَ حديثنا، فابتسمتُ إحدى ابتساماتي القديمةَ وتبلَّل جفني بالدمع...

لم أكن أعرفُ أنّني سأعودُ لأبتسمَ في حضرتكِ هكذا، ربما لن تفهمي ما أعنيه لأنّكِ لا تعرفين كم طال غيابُ ابتساماتي القديمةِ عني، ولن تفهمَ الفوانيسُ أيضاً.. لكنّني كنتُ أشعرُ أنّي أعودُ لنفسي شيئاً فشيئاً وأنَّ الرّوحَ قد رُدَّتْ إلي، تلك الرُّوح التي غابَت عني أو غابت منّي مع غيابِ بَلسم منذ سنواتٍ عديدة، (بلسم؛ حبيبتي السّابقة)، حينها التحقتُ بِرَكْبِ المتألّمين المؤمنين أنَّ الألم عِماد الحياة.. التائهين في الدّنيا، وأصبحتُ ممّن يعيشون مع الوحدة كصديقة، ويتلذّذون بالوجع فيزدادَ جمالُ وجوههم، وتبدو أناقتُهم بلا مثيل، يومَها بدأتُ أتعلّمُ من الحياة أكثرَ وأتأمَّلُها أكثر، بدأتُ أتبلور وأكبرُ في اليومِ الواحدِ عشرات الأيام، وأنتقلُ من مرحلةٍ الى أخرى بسرعة فائقة... في ذلك الحين بدأتُ أشعرُ أيضاً أنَّني عشت ما يكفي من الحياة.

هكذا تكون نهاياتُ الحب تُنهي معها كلَّ شيء حتّى الحياة.. كأنَّنا نولدُ من جديد لكن بقلوبٍ مثقوبة.. وأرواحٍ باهتة.. إنَّها الخواطرُ عندما تُكسر، نصبح هكذا.

اليوم يا عزيزتي أتساءلُ هلْ نحن حقّاً نموتُ مرّة واحدةً في الحياة..؟ هل هذا مؤكّد..؟ وأقفُ بين الضّجيج الحياتيّ الهائلِ وبينكِ فأبتسم للحظةٍ، ثمّ يعودُ الملُ إلى وجهي -أظنّه الملل من العيش- ليكونَ حقيقياً أكثر، ومُعبّراً أكثر، وفي أثناءِ وقوفي أتمنّى أن تكوني أقرب، لأكتبَ لكِ وأنا في حضرتكِ.. أي أنْ أكتب لكِ وجهاً لوجه لتفهمي أنّكِ المعنيّةُ بالمَعاني وبالنظرات، وأنّكِ المقصودةُ عن غير قصدٍ بالإعجاب والحبّ..

ثم أسكبَكِ في الأقداح.. أشربُكِ كخمرِ عنبٍ وتفاح.. باستثناءٍ من كلِّ الأديان والتَّقاليد والمعتقدات.

في لحظةٍ ما، كنت أحاولُ تركَ هذا العالم لبعض الوقت، والتّحولَ لشجرةِ طريقٍ تقفُ تحتَ شُرفتكِ، أو ربما عمودَ كهرباءٍ يُطلّ مباشرة على غرفتك، أو أيّ شيءٍ يستطيعُ البقاءَ ثابتاً على مسافةٍ مُعيّنة تفصله عنكِ، فأنا عندما يتحرّك الإحساس في أعماقي أخاف الاقتراب كما أخاف الابتعاد بالضّبط، وهذا ما يدفعني للتردّد غالباً يا ماري..

كنتُ أنتظر طوال اللّيل، أنا وأرقي ونومي المتقطّع ليعودَ الحديثُ بيننَا يَحْبُكُ أملَ يومٍ جديد، كان فيه إشراقكِ يَعني بداية يومي..

نحن يا ماريّة.. نظنُّ أنَّ الحياة جميلة حتى نكتشف وجهها الآخر، ونكتشفُ وجهَها الآخرَ، أي أننا نرى ما لا نحبّه، ونشم الرائحة الّتي لا نرغب بها، ولا تكون الوجناتُ كالتّفاح، ولا يكون الثّغر منقوشاً بالسكّر، حينها فقط نعترفُ لأنفسِنا بحسرةٍ أنَّ الحياة ليست جميلة كما كنّا نظنّ، على الأرجح هذا نتاج غبائنا.. (في ظنّنا أو اكتشافنا)، لكن وباعتقادي الشخصيّ أنَّ للأمل -بشكله ومضمونه العامّين- إصبعٌ في ذلك، منذ أنْ تكوّنَ هذا الاعتقاد لديّ أصبحتُ أرفضُ الأملَ رفضاً قاطعاً، بل وأصبحتُ من مشجعي اليأسِ، وهذا كانَ أفضل، لأنّي أصبحتُ أتوقّعُ الأسوأ دائماً حتى يثبت العكس...

القوة في الحياة يا ماري ليست أن نتسلّحَ بالأمل بل أنْ نصنع من اليأسِ إن وُجد؛ دافعاً لنا لنستمر.

نحن يا عزيزتي لا نعرفُ كيفَ نتحرّر من قيودِنا، من ربطةِ العنق الخانقة، من الصدرِ المشدودِ المُتعب، والكلماتِ المزيّفةِ الحقيرة، ولا حتّى من الحسرات والآلام، ولا ممّا مررنا به أو مرَّ بنا من الفشل..

نحن نسمعُ الموسيقا للتّفاخر لا المتعة، ونمشي كثيراً للتسوّق ثم نعجزُ عن الرّياضة، أو نتململُ من كؤوسِ الماء، تخيّلي كم نحنُ مضحكون!

نحنُ نعيشُ الحياة على أهواءِ مَن حولنا، محيطنا، ومجتمعاتنا، دونَ أدنى قناعةٍ بذلك.. نعيشُ حتى نُكسرَ تماماً.. وتصبحَ كلُّ جغرافيّتنا مهدّدة، ثمّ نقرّرُ التّراجعَ لنعيشَ على هوانا لكن بعدَ فواتِ الأوان وفقدانِ الأمان..

وعندها لا نستطيعُ ثنيَ قلوبِنا، ولا القلوبُ ترضخُ للحياةِ فتعيش، أو تأبى الحياةَ فتموت، غرباءُ نحن لا أكثر... فماذا يفعلُ الغريبُ للغريب يا ماري؟ المجدُ يا حبيبتي لمن رحلوا، لمن عرفُوا أنَّ الصبرَ قد يكون مفتاحَ قبرٍ محفورٍ في وجه الأرض، والعذابُ لمن وقفُوا مع تلالِ الأمنياتِ، والدعوات، والأحلام، يَنشِدون الصَّبرَ ويحاولون الصّمود، فكان الصّبرُ مفتاحَ قبورَهم فعلاً (المحفورة في وجه الأرض والحياة).. والفرَجُ رحلَ مع الّذين رحلُوا.. المجدُ يا عزيزتي لمن رحلوا...

فخُذي الوطنَ لم أعدْ بحاجةٍ للأوطان، سأسكنُ الحزنَ بلا تردّد.. بلا مسكّناتِ ألم، وبدون بوحِ الصّدور، خذي كلَّ ما شئتِ.. فرغم كلِّ شيء، أنتِ أحدُ وشومِ حياتي، وسيبقى الغريبُ غريباً..

نحن يا ماريّة الّذين سقطْنا مراراً من جيوبِ الحبِّ.. وعلّقنا أنفسَنا مراراً بذيلِ عباءَتِهِ، حتى هُشِّمَت أجسادُنا، والسحجاتُ في قلوبنا لم تبقي مكاناً للغد...، ونحن الذين لازلنا نحتاجُ للحبِّ لننسى أو نتناسى آلام ماضٍ ساحقٍ متهور، لنعيشَ في واقع يستحقُّ العيش، بدلَ البكاء من حرقةِ الوحدة وذلّها، لكنَّ الحب يا ماري يأتي مرّةً واحدةً فقط، وكلُّ كُتبنا الدّراسيةِ لم تخبْرنا كيفَ نعيشُه أو نحافظُ عليه...، أليس الحفاظُ على الحبِّ أولى من مبادئ الإعراب، وأهم من عناصر الكيمياء وحجوم ذراتها؟ أليست مبادئُ الحبِّ أفضلَ من كتبِ التّاريخِ وتضاريس الجغرافيا؟

إذا كنا نحن يا ماري لا نعرف تضاريسَ الحبِّ فبماذا ستُهِمُّنا أعدادُ السهول والوديان وأسماء الجبال؟ لو قاموا بتدريسنا صناعةَ السعادةِ أو حتى صناعةَ المحبّة، أو التّعاملَ مع الحزن وآلامِ الوجدان، أو التصرّفَ عند الفقدِ أو في الحرمان.. ربما كنا أفضل مما نحن عليه الآن..

أليس حريّاً بنا أن نعلمَ -مثلاً- أنَّ المرأةَ السّاقطةَ هي امرأةٌ جُبرَت على هذه الحياة تحت ظرفٍ ما -ربما- وليست امرأةً باعت شرفَها هكذا بلا أسباب (شخصياً ألومُ من يَشتري لا من يبيع)، أوليس حريّاً بنا أن نعلم أيضاً أنّ الفتاةَ العاشقةَ هي فتاةٌ دقَّ قلبها فمالتْ -ربما- وليست فتاةً مالتْ هكذا بلا أسباب، وأنَّ الرّجلَ هو النَّخوةُ والشَجاعةُ قبلَ الأموال والسّياراتِ الفارهةِ والمنازلِ الفاخرةِ المنمّقة، وأنَّ الحياةَ الواقعيّة ألذُّ حتماً من الخيال، أتدرين يا ماري..! لا أعرفُ ما الّذي جعلَنا نعيشُ في هذا العالمِ الالكترونيِّ الصَّامت، لكنَّني أظنُّ أنَّنا نحبّهُ لأنَّه يجمعُ بين وحدَتِنا الّتي نحبُّها ونرتاحُ من خلالِها، ويتيحُ لنا فرصةَ الانخراطِ بالمجتمع بالصّمتِ الّذي أصبَحنا نُفضِّله الآن بعد نضوجنا.

إنَّها صراعاتُ الحياة والتَّأرجحِ ما بينَ المتناقضاتِ الحياتيّة، الّتي غالباً ما تُلقي بظلالها علينا، فنصبحَ نحن أيضاً نعيشُ بتناقضٍ يشبه كثيراً تناقض اليومِ الأوّلِ في الحبّ واليوم الأخير فيه، أي أنَّنا مقسومون لنصفين، نصفٌ يستحقُّ الحياة ونصف آخر لا يستحق.. وبذلك نكونُ نحنُ غرباءَ حتّى عن أنفسِنا، فماذا يفعلُ الغريبُ للغريب يا حبيبتي؟ وفي النّهاياتِ يبقى الغريبُ غريباً أو يعودُ كما كان من قبل..

نحن -غالباً- نعرفُ كيفَ نكذب، ونُخفي حقيقةَ ما يجولُ في خواطرنا، لكنَّنا لا نعرِف قولَ الحقيقةِ كاملةً بلا تغيير، ونعيشُ بأحلامٍ أكبرَ منّا ومن أعمارنا، ولانعدام التَّناسق، تُهزَمُ أحلامُنا ونُهزَمُ نحنُ معها أيضاً، حتى نصبحَ في النّهاية نسألُ الرَّحيل.

***

والتقينا، حين التقينا فقط.. ولازالَ اللقاء، ما انتهى.. رغم صُحبة الفراق يا قدر، هي مطلع القمر والمنتهى.. التقينا، وللنّهايات حماقةٌ كأولادِ حارتنا، كجرحٍ يستلذُّ بالكَيّ، ولا يعرف أنّ الكَيَّ من أركان الشّفاء.

كان الإرهاقُ يفتحُ كلَّ مناطِقي، تِباعاً.. ويسبي النّهودَ اللطيفةَ التي بايَعتني طويلاً.. من قلاعِيَ المُنهارة، من بين أضلُعي المفتوحة، هناك حيث طهّرتُ نفسي بالتمرّد وضربتُ أجراسَ الخطرِ لأنعمَ بالهدوء، ومنعتُ السّاطورَ من مُخاطبةِ النّساء لأسيرَ عكسَ الشّرق، وأعلنتُها أرضاً بلا قانون.. تلمُّها روحُ المحبّةِ بلا مبادئَ أو تقاليدَ أو قيود، وكنتُ أعدّلُ وصيّتي قبلَ النّوم كلَّ ليلةٍ.

كنتُ أحاورُ جداري العاشق، وأحاولُ ألا أصدّقَ قصّةَ عشقِه للكأسِ، وشغفَ الكأسِ به، أسمع تنهّدات نافذتي أثناءَ غيثٍ، متجسّساً على حديثٍ ممتع عن حبيبتي، تدورُ أطرافُه بين الطّاولة والأريكةِ وباقةِ الجوري وفنجان القهوة المثمَلِ بشفتيها.. وكعادتنا كنّا نتناولُ وجبةَ العشاءِ معاً على استثناءِ الوسائدِ الّتي أشبعَتها رائحةُ الملابسِ فقط..

كنت أنامُ -وفي رأسي كأسُ حزن- ولا أنام، وأصحو بلا صحوة، مخموراً بحزنِيَ الفتّاك.. كنتُ أتساءَلُ ما الّذي يجري..؟ ولكن حتى اليومِ لا أعرفُ ما الّذي جرى آنذاك..

كان الدُّخان المُنبعثُ من فمي دُخاناً عادياً، لم أفهم -لا أنا ولا الغير- أنَّ هذا الدُّخان هو دخانُ الحرائقِ الّتي حصلَت في غاباتِ قلبي، حتى رأيتُ الرّماد بأمِّ عينيّ...

إن لم يُبكينا الحبُّ يا حبيبتي فنحنُ لم نُحب، لكن أن يتمادى الحبُّ حتى نتلظَّى فهذا ظلمٌ وشرف..

كنتُ أجلسُ في الزاويةِ، مُستندَ الأكتافِ، كلٌّ على جدار، ونمتزجُ معاً لتصير مدوّرة -بفعل الصدر- وأحاولُ البدءَ في الحديثِ مع الشّوق محاولاً إقناعه -كما كل ليلة- ألّا يكون موجعاً، ولكن تلعثمتُ يا عزيزتي، بدوتُ كمن لا لسانَ له، ولا أبجديةَ أيضاً.. ثم ذهبتُ أعزفُ الّلحنَ المتألّمَ المستلقي على الانحدار الحاضرِ في اسمي، مُخبراً إيّاهُ أنَّني واسمي نسيرُ معه على الدّرب، ومن تلك الزّاويةِ حدّثتُها كثيراً.. كتبتُها، كما أنَّني كتبتُ لها أيضاً: "من الصّعب جداً ألّا أملكَ رغبةً في الحياة وألّا أملكَ فرصةً للموت، كلُّ ما لديّ الآنَ قلبٌ ينبضُ بلا سبب، وأمنيةٌ بلقاء حبٍّ يجمعني بكِ.. وننتهي أنا وإيّاه معاً، فأنا مصابٌ بالأكروفوبيا حين تتعلّقُ الأماكنُ المرتفعةُ بالحبّ ".

كنتُ أرسمُ في خيالي قصةَ حبٍّ للتَّاريخِ أعيشُها أنا وأنثايَ، هكذا يعيشُ المتأثّرُ بقصّةِ روميو وجولييت، وكنت أتمنَّى لو ألتقي بروميو ليحكيَ لي عن جولييت، فلا أحدَ يستطيعُ التّحدّثَ عن جولييت كما يفعلُ روميو حتى جولييت بشخصِها، وأظنُّ لو أنّني كنتُ في لقاءٍ كهذا... لكنتُ أحببت جولييت أيضاً..

كنتُ أبحثُ عن علاقةٍ تكونُ كعلاقةِ البحرِ بالشّاطئ!!

كنتُ أبكي في داخلي عندما يمرُّ طيفُك في وجداني، انتقلتُ من مرحلة الدّمعِ المرئيّ العادي.. إلى مرحلة الدّمع الّذي لا يُرى ولا يُكتَشف.. وفي قلبي قلتُ لها كثيراً.. دعيني أنام فقد قضيتُ الّليلَ في عينيكِ متأملاً..

كنتُ أفكّرُ كيفَ كنّا معاً، أو لماذا كنّا معاً، ما الّذي جرى في الطّريق الّذي أخذَنا فجأةً إلى العشق، أيُّ لحظةٍ بالضّبط كانت لحظَتنا، أيُّ ابتسامةٍ بالضّبط كانت طريقَنا، وغروبُ الأيّام الغريبةِ في نَيسان الخائفِ، كان الشّاهدَ الوحيدَ على الوردةِ التي قَطفَتْ قلباً..

كانت هدوءَ قلبي، كانت روايةً ترويه وترتوي منه، كانت النّشيد الرسميَّ لدولتي، كانت البحرَ والبحّارَ والغيثاء..، والأملَ المزروعَ في عين النّاظر إلى السّماء..

كنتُ أراها في المسافةِ ما بينَ القمرِ والسّحاب، تجلسُ على طرفِ غيمةٍ عابرةٍ.. كالصّغيراتِ الجالسات على ضفاف نبع، كالحلمات الحالمات بيومِ لبأ، من هذه؟ كان هذا سؤالَ الرّوحِ للرّوح.. والحديثَ الدّائرَ بين الزيتون والزيت، من هذه؟ ذلك السؤالُ الّذي عجزَ عنه الجواب.

كنتُ أكتبُ للشّمس أنّني أحببتكِ، لأخبرَها أنّني لم أعد مهتمّاً بشروقها، وأكتبُكِ ما بين الأحرف المكتوبةِ في صباحِ الخير، وأمواجُ الحياة تضرب قلبي فأعيشكِ على مدٍّ وجزرٍ وغرق، هناك حيث أطلَّ البريقُ أشرقي ثم قولي (مرحباً) بالنداء المتعجرف..

كانت الأيامُ رائعةً، ومرّت كما تفعلُ الأحلام.. لتدخلَ غرفةَ الذّكريات على أملٍ بأنْ نلتقي ذات حظٍّ أو ذات قدر، وكنتُ للحياة أقول، انتظريني فأنا لا أملك ثمن النَّبيذ..

كنتُ أفتحُ بابَ ثلّاجتي وأقفُ أمامها حتى أشعرَ بالبرد، ثم ألملمُ وسائدي إلى قلبي، محاولاً صُنع الحنانِ المفقود، متدرّباً على التّوحد الّذي كنت مُسيَّراً إليه..

كنت أخافُ من الخوفِ أنْ يخيفَني أكثر.. حين يجولُ في خاطري السّؤال، هل سيكتشف قلبي كم كذبت عليه..؟ وماذا عساه يفعل..؟

ألف دقّةٍ في دقيقة، صدرٌ يعلو ويهبِطُ كالجبال، روحٌ مسجونةٌ في الخوف، عينٌ مُحمّرةٌ وأخرى في انتظار، وحشرجةُ الأملِ وصلت إلى حدود السّماء السابعة، فكيفَ سيكون الغدُ حين نلتقي..

والدّخانُ كالغمامةِ فوق رأسي، ورأسي مستندٌ على الجدار، والجدارُ يتحدّث إلى الكأس، والكأسُ تنصت له بابتسام، والابتسامُ كالصّلاة أحياناً.

- كيفك.

- عادي ماشي الحال، أنتِ كيفك.

- تمام، حليان كأنّك!.

- لا والله بس من الشوق.

- والشوق لمين.

- إلك دكتورة ولو.

- كأنك حاببني.

- لأ مو كأني، أكيد حابّك، عالأقل متل ما أنت حاببتيني.

- شو هالثقة يا حكيم؟

- من بعض ما عندكم.

- يلي عنّا كتير.

- هههه ويلي عنّا هو شوي من يلي عندكن دكتورة.

- كيف كانت أيامك بغيابي؟

- كانت حلوة كتير.

- أه بغيابي يعني، طب أرجع غيب.

- ولا لحظة كنتِ غايبة ماريّة، يمكن ما التقينا، وأحاديثنا كانت قصيرة.. بس ما غبتي عني.

- بتعرف ميّار، كنت عم تخطر على بالي كتير.

- وأنت كمان ماري، في شي غريب.. بتعرفي حسيت قلبي تقيل.

- كيف يعني تقيل!؟

- يمكن مغرور، يمكن مايل، ويمكن يكون حابب هههه.

- امممممم حابب قلتلي.

- إيه والله يعني إذا ما عندو مانع.

- مين هو يلي ماعندو مانع.

- قلبك ماري.

- أه والله وأنا ما خصني بالموضوع كأنو.

- هلق هو الحقيقة يعني ما خصّك، خلي القلوب تتفاهم.

- هلق هو ما عندو مانع، بس أنا خصني بالموضوع وبقوّة.

- طالما بقوّة، معناها خصّك أكيد.. أصلاً مين قلك ما خصّك.

- أنت قلتلي.

- يلي قلك كان عم ينام بعيونك كل يوم، خلال هالأيام السبعة يلي مرقت.

- وعاددهن كمان يا حكيم.

- أكيد، العدد قليل مقارنة بالحقيقة.

- هلق بيكبر راسي ها.

- على أساس راسك صغير يعني.

- هههههه أفحمتني، يعني اقتنعتْ إنّو نحن ناس عاديين.

- يعني نوعاً ما، بالنّهاية أنت أكبر مني ومن الطَّبيعي يكون في رهبة لما قابل حدا سابقني بالطّب، خاصة لما بحس إنّو هالحدا عم يحركلي مشاعري، مُرعب الموضوع.

- يمكن تكون الرّعبة هي رهبة هالمشاعر.

- كمان ممكن طبعاً.

- بتعرف إنّك حدا غريب، ومتعدّد الشخصيات وهاد شي كتير حلو فيك.

- هلأ أكيد، بس كمان هاد الشي مُتعب.

- شو التّعب يل فيه.

- إنّك تكوني إنسانة غريبة بمجتمع عادي أو نمطي إلى حدٍّ ما، فأنتِ عم تعيشي كل يوم معاناة.. هي الغرابة..

على الأقل بنظرات الناس يلي عم تلتقي فيهن من زملاء أو مرضى أو حتى قرايب.. بمعنى تاني أنت مُتّهمة دايماً بغض النظر عن نوع التّهمة.

- فيّا وجهة نظر، طيّب وبتعدّد الشخصيات.

- هلأ تعدّد الشخصيات بيعني المرونة، وهاد برأيي أهم عامل من عوامل الحياة.. بس إذا قلتلك إنّو أنا كنت كتير محتار بالشخصية يلي لازم أختارا كرمال شوفك فيا شو رح يكون رأيك.

- رح يكون إنك تختار الشخصية الطبيعيّة وتشوفني بعفويتك.

- تماماً، ف لحتى اخترت هي الشخصية قضّيت وقت كبير وأنا عم فكّر.

- ليش لحتى تفكّر؟.

- لأنو إذا اخترت الشخصية الغلط ممكن اخسرك، متل ما بتعرفي نحن كشعب منكره من اللحظة الأولى، وبالعكس بدنا وقت طويل لحتّا نحب.

- بس أكيد بتعرف إنّو هاد الشي غلط.

- أنا وأنت منعرف.. ومنحب نكون عفويّين أو على طبيعتنا، بس أكيد مو كل الناس هيك.

- صحيح يا دكتور.

- خبريني أنت كيف كانت أيامك.

- ياسيدي كانت أيام عاديّة، شغل وبيت ومشاكل بالعيلة ووو.. وكمان اشتقت لأقعد معك وناقشك هيك نقاشات ممتعة.

- أنا كمان ما بنكر إنّي مشتقلك، ما كنت بتخيل إنّو أرجع أشتاق هيك لحدا.. هي اللحظات ممتعة جداً بس نحن ما منعرف قيمتها لحتا تروح مننا.

- وبس تروح.. منتمنّى إنها ترجع.

- تماماً.

- شبك لي هيك عم تطلع فيي؟.

- ولاشي.

- لا عنجد شبك؟.

- عم صلّي، سبحان الرب كيف خالق هالحلا فيكِ.

- ممم.

- فيك سحر غريب، مابعرف كيف أحكيلك ياه، ما بعرف كيف قادرة تسيطري على كل شي خلال سبع أيام بس.

- خجّلتني على فكرة، مع إنّو ما بحب المبالغة بالكلام.

- لو حسيت حالي عم بالغ كنت سكتت، بس هو إحساس بالنهاية.

- إحساسك بجنن ميّار.

- أنت السبب ماريّة.

(٤)

فالحبُّ هو موتٌ أنيقُ المدى، هو آلةُ القدرِ في إغاثة البشريَّةِ.. وعصرِها في آنٍ واحد..

ميّار

لم أكن أعرف أنّني سأدفعُ كلَّ هذه الأثمانَ.. حينَ قرّرتُ أن أكملَ الحياةَ لوحدي، أحياناً يضعكَ قرارُك في مأزقٍ، ولكن لا تعودُ عنه، كنتُ أقولُ لنفسي دائماً؛ "تذكر دائماً أنَّ الرجوع ليسَ من العيب، ولكن إذا أردت أن تكملَ لترى النّتائجَ فأكمل، هذا شأنُك وحدك"، ولم أكن أعرفُ أيضاً.. أنَّ البعض سوفَ يحاولون اختراقَ القرار.. فقط بهدفِ الاختراق، فقط لأنَّ الاختراقَ كان عصيّاً عليهم أو يَشعرون أنه كذلك.. وحين ينجحون في ذلك يلمّهم الرحيل، ويمضي بهم...

كنتُ أفكِّر أنْ أدخلَ يوماً ما إلى مكانٍ كبير، أُخفي بكاءَ صدري بابتسامتي الجذّابة، والجميعُ ينظرُ إليَ.. منتظراً، فأقولُ لهم أنّني افتقدتُ حبيبتي في أكثر اللّحظات إيلاماً، وربّما أعترفُ أنّ تلكَ اللحظةَ بالذّات كانت هي حبيبتي، وهي أيضاً تلك الجزيرةُ الّتي أعيشُ فيها منعزلاً ولا أودُّ مُغادرَتها، (اللحظة)..

لم أكن أعرفُ أنّني سأعيشُ في البركانِ لوحدي، وأخمدُ نار الفؤادِ بالفؤاد، وأقتلُ الأحلامَ بالأحلام، وأعيشُ مقسوماً بيني وبين قلبي فأرمي نفسي في ظلالِ الرّحيل أيضاً..

ثم أكملُ اعترافي؛ لم أكن أتوقّعُ أنْ تدفعّني امرأةٌ إلى التّفكير في أنْ يموتَ الموتُ ليعيشَ الورد فوق أخاديد القمر دون رحيل، مرَّت تلك اللحظاتُ مرورَ الحمام على قمّةِ جبلٍ يَشعرُ بالوحدة، فرفعَ رأسَه ونظرَ بعينيه المبلّلتين بالدّمع، ثمّ ابتسم، وأظن اليوم أن ذاك الجبلَ هو قلبي..

لم تمرّ على قلبي فقط.. بل مرَّت من خلالِه أيضاً.. ودارت مع دورانِ الدّمِ في كلِّ أنحاء الجسد، أثناء ذلك تخلّيتُ عن كلِّ القوانينِ والمبادئِ أمام نهرٍ ثائرٍ من الإحساس.. ينادي بالحياة..

كنتُ أشعرُ بروحِها تحيطُ بي من كلِّ جوانبي.. وأيضاً في زواياي، كنتُ مُستلقياً على وسائدِ الحنان، في حضرة امرأةٍ مجنونةٍ ضغطَت على مفتاح القلبِ صدفةً فَفُتح لها، ودخلت إليه، (هذا المفتاح الّذي لم يكن ليستجيبَ منذ زمنٍ بعيد!! استجاب فجأة)، تناولتْ صكَّ ملكيّتِه واثقةً بأنّها ستقرأ اسمَها تحت بندِ المالك، ثمّ جلست أمامي مرتاحةَ البال.. كان ذلك واضحاً في كلِّ تفاصيلِها، وبدوري ابتسمتُ لها.. فلا أحدَ يستطيعُ إخفاءَ ادمانِه على امرأةٍ، تمشي فيه حافيةً أو ترقصُ في داخله، كان وجهُها علاجيَ الوحيدَ.. وروحُها اختصرَت كلَّ الأطبّاء، بعضُ النّساء لديهنَّ قدرةٌ فظيعةٌ على الانسلال إلى الأعماقِ بخفّةٍ؛ يُشبهنَ في ذلك حركةَ كريّات الدّمِ وخاصّةً البيضاء...، عبر الجدرانِ الشعرية إلى أنسجةِ الجسمِ في الأحياء، هذا الانسلالُ رائع جداً، كأن تنامَ يَتيماً وتصحو عاشقاً...

حين قبّلتني شعرتُ أنّي أتنفسُ للمرّة الأولى في حياتي، يومَها مرَّ الوقتُ سريعاً بنا، كان ممتعاً وكنتُ أشعرُ بفرحٍ يغمرُ كلَّ حشوتي..

في أحضانها عدتُ إلى طفولتي مجدّداً، (إحدى دلائلِ المحبّة هي تلك الطفولةُ الّتي تعيشُ فيها مع من أحببتهم).

لكني لم أكن أعرفُ أنني سأعيشُ في البركان لوحدي، أو أنني سأخمد نار الفؤاد بالفؤاد.. وأقتلُ الأحلام بالأحلام وأعيشُ مقسوماً بيني وبين قلبي فأرمي نفسي في ظلال الرحيل، ثم يرفضني الرحيل مُجبِراً إياي على الحياة..

ولم أكن أتخيّلُ أبداً، أنْ أعيشَ لحظاتٍ كهذه، بعد كلِّ الجمود الّذي مررتُ به ومرَّ بي، الجمود الّذي أصبحَ قطعة قماشٍ أنيقةً ترتديني دائماً، ما تخيّلتُ يوماً أنْ أنتحر من أعلى جفنِ سيّدةٍ جميلةٍ (هي حبيبتي) إلى قاعِ مدينةِ الحبِّ المهجورة الواقعة على كتفها، أملاً بألّا أقومَ بعدَ ذلك، كانت اللّحظاتُ مؤلمةً جداً رُغمَ كلِّ حلاوتِها ولمعانها، (عندما تعودُ إلى الشّيء بعدَ هجرانٍ طويلٍ تشعرُ بارتباكٍ عظيم، فكيفَ لو كانَ هذا الشيءُ هو العشق!!)، كنتُ أشعرُ بفرحٍ رفيعٍ جداً، في لحظةِ الخوفِ ممّا هو آتٍ..

كان قلبي يرتعشُ وترتجفُ يداي، حينَ يُخيّلُ لي أنّها تناديني بصوتِها، شيءٌ ما ينبعُ من الأفق.. من كلِّ ما و مَنْ يحيطُ بي، كأنْ تَلِد الشّمسُ ظلّاً خاصّاً، يُظلّلني..

أو يخرجَ الماءَ متدفّقاً من الأرض، يُغرقُني، وعلى صوتِ موسيقى مجهولِ الهويّة، أتناولُ قلمي لأكتبَ على ورقةٍ أنّني لن أنجوَ هذه المرّةَ من شامةِ النّهدِ ولا من خصلِ الشّعر الأسودِ القادمِ قدومَ اللّيل، ولا من ألقِ أظافرها المغروسةِ في لحمي.. ولا من سيفِ مُحيّاها العربيِّ المُحلّى.. ولستُ بأحمقَ لأتمنّى النّجاةَ من قدمٍ مُخلخلةٍ ترقصُ على جسدي حافية، بل وربّما سأتمنّى الموتَ هكذا..

طالما أنّني أعيشُ في البركانِ لوحدي، وأخمدُ نارَ الفؤادِ بالفؤاد، وأقتلُ الأحلامَ بالأحلام وأعيش مقسوماً بيني وبين قلبي فأرمي نفسي في ظلال الرحيل، ويرفضُني الرحيلُ مُجبِراً إيّاي على الحياة، فأندثرُ كدخانِ رمادٍ هبّت عليه ريح أيلول عند السابعة مساءً.

كانت درساً أنثوياً بحجمِ الحياة، وبدوري أصبحتُ تلميذاً يحبُّ الحياة، ويلهثُ للتّعلم والتهامِ الدّروس، وبقيَتْ هي الدّرسَ الوحيدَ الّذي حاولتُ حفظَه عن ظهرِ قلب، كنتُ أريدُها أن تستيقظَ على قلبي (كما نامت) أو على كلماتي أو على صوتي، وكنتُ راضياً لو أنّها تستيقظُ وحدَها استيقاظَ القمر.. لأكونَ لها كما تكونُ النّجوم للقمر، وتتموضعُ هي كما الملكات، فكلُّ ما فيَّ أحبَّها!

وأصبحَ يشتاقُها بقصدٍ وعن غيرِ قصد، وينتظرُ أنْ تقولَ شيئاً، تروي عبرَه اللّهفةَ، فأنا لا أستطيعُ النّومَ إلّا في بهوِ عينيها.. محميّاً بأهدابِها.

***

لم تكن المُشكلةُ في الفرحِ بحدِّ ذاتِه، كانت المُشكلةُ الكبيرةُ أنّني فقدتُ شجاعةَ الرّقصِ أمامَ أيِّ شخصٍ آخرَ سواي، فأنا منذُ ولادتي لم أكن مُهتمَّاً بالموسيقا الرّاقصة.. حتى أنّي لا أذكرُ أنّني عمدتُ لحضورِ حفلٍ في حياتي بهدفِ الرّقص، هذا يشبهُ فقداني للكثيرينَ لأنّي لم أتناغمْ مع موسيقاهم، وفي حياتي الشّخصية كنتُ أحلمُ وأحتفظُ بالأحلام لنفسي، حلمتُ كثيراً في أنْ أكونَ عاشقاً -مثلاً- ولكنَّ هذا الحلمَ كانَ عليه أنْ يولدَ من رحمِ فتاةٍ جميلةٍ ليعيش، وبدونِ ذلكِ الرّحم وتلك الولادةِ لن يعيش، لا يمكنُ للعشقِ أن يعيشَ ما لم يقتَني أثداء تغذّيه، وفي الحقيقةِ هناك أحلامٌ راودتني لتعيشَ معي وأعيشَ بها، لكنّها بقيتْ ضدّ النشر، فبعض الأحلامِ تبقى مُلكاً خاصاً، في غيابِها يشعرُ الإنسان بالدّونية..

(يصبح العشقُ حلماً عندما نعيشُه كثيراً وينتهي بالإحباط، هذا العشق الحلم كان بالنّسبة لي، ماريّة).

كنتُ أعيشُ غارقاً في الوداع، الوداع الحتمّي، وأرقصُ على دندناتِ اللّيل والعتمات، لم أكن مُتباكياً لكثرةِ الخيبات، بل كنتُ باكياً لكثرة الألم، أحياناً تنفردُ بك الأيامُ، تبعثرُك بين الماضي والحاضر، لا أعرفُ لماذا تصحو بنا كلُّ آلامِنا في هذا الانفراد، ربّما يُعزى ذلكَ إلى الاعتياد!، ما الحياةُ يا عزيزتي حينَ تكونُ أحزاناً وخيبات واعتياداً كهذا، ولِمَ يكونُ الحياء في هكذا حياة؟.

لازلتُ أحبُّ أنْ يتمزّقَ قلبي بفعل حماقاتي أكثر، ليكونَ الجنونُ هو الإمامَ والقدّيسَ للعمر، وتعمَّ الفوضى الأيّام.. فيزدادَ تعرُّق الرُّخام ويبقى الوردُ على صدرِ أمِّه نائماً، أعيشُ قصّةَ حبٍّ جديدةً، وأولدُ مرّةً أخرى حتى لو كانت ولادتي من الخاصرة، فأحزنُ حزنَ شوقٍ وأذرفُ دمعَ اشتياق، ثم أفرحُ لمجرّد لقاءٍ قصيرٍ في مكانٍ بسيطٍ بشخص ما، هو أنتِ يا ماري.. وأقرأ التّراتيلَ السّماويةَ على يديك، أمسحُ بيديكِ وجهي، فيبقى بريئاً مميزاً بآيات الرحمة..

ثم أصرخُ في السّماء أنّي ها هنا قد عشقتْ، هنا قبّلتُ يَدَي محبوبَتي، هنا انفجرَ الحبُّ بي وانفجرتُ بهِ حتى أصبحَ اللّيلُ نهاراً، كلُّ الألوانِ هنا بيضاءُ، كلُّ الأبوابِ من هنا مفتوحةٌ، كلُّ الكلماتِ هنا مضحكةٌ أو تبعثُ على الفرح، وكلُّ النسماتِ المارّةُ من هنا ممتعةٌ، وأصرخُ في المدى، ها أنا الآنَ قد جُننت، فأصبَحَت البساتينُ أجمل، والأشكالُ أجمل، فلا يتوقّفُ الحكمُ ولا يتوقّفُ القدر، حتى ينطقَ الحجر.. ويبتسم القمر، حتى يسيلَ اللّيمونُ إلى الأعماق، ويصبحَ العالمُ أقصوصةَ شعرٍ تتلوها الأحداق.. في إحدى ليالي السّمر..

هكذا تعودُ أجزائي المقتولةُ يا ماري، عبرَ حلمٍ أو مقطعٍ من خيال، يولدُ من كلماتِ أغنيةٍ أو معزوفةٍ موسيقيّة تعبُرُ في أذني، أو من مشهدٍ في السّوق يجمعُ بين حبيبين، أو من وردةٍ ذَبُلَت فأُهملت أو أهملت فذبُلت، وحين عرفَتْ أن البشرَ قد استغنَوا عنها، حاولتْ الصّمود على غصنِها الأمّ، أو في يدِ أحدِ الأشخاص وربما بينَ صفحاتِ كتاب ما..

ثم تعودُ "أجزائي المقتولة" إلى أكفانِها، حينَ أتابعُ صمتَ الكؤوسِ المُنتظِرة، وأنتبهُ إلى الباب الّذي لم يُطرَق أبداً،
وألْحظُ الخوفَ العائِمَ في قلبي.. فأعودُ إلى دُخاني بشراهةِ الفتى المغلوبِ المتيّم رغمَ كلِّ التّوصيات، متظاهراً بألّا شيء يُخيفُني..

كنتُ أغرِّد خارجَ السّرب وحدي، وأمثّلُ لنفسي دور الزّوجِ والزّوجةِ والأطفال.. متنقلاً بينَ الوعي واللّا وعيِ والجنون، وربّما كنتُ في غيبوبةٍ ما، بينَ الهدوءِ والشّغب، لم تكنْ حياتي ناقصةً كما أخبرتكِ -ولن تكون- لكنّني كنتُ أشتهي عناقكِ كثيراً أنا الّذي فقدتُ معنى العناقِ منذُ زمنٍ بعيد ولكن لا أحدَ يسمعُ النّداء، الجميعُ أدارَ ظهرَه ومضى، هكذا نحن يا حبيبتي.. نموتُ أمامَ أعينِ الجميع، والجميع يحضرُ في حفل التأبين، وبعد عدّة أيّامٍ فقط يصبحُ كحفلِ زفاف.. ويتحوّلُ لذكرى، أليسَ هذا كوميديّاً؟

فقط عائلةُ الجمادِ الّتي أحببتُها كانت معي، ومعزوفةُ البيانو الّتي أفضّلُها عادةً كانت الرّفيقةَ الوحيدةَ، وأضواءُ هواتفي النّقالة الّتي اقتنيتُها وحَدها كانت ملكاً لي، لم يستطعْ الطبُّ إنقاذي، ولم ألجأ للتاريخ لأعيشَ كما يفعلُ العربُ عادةً، فالأحلامُ يا ماريّة كأجنحةِ العنايةِ المشدّدة في مشفى أمراضِ القلب..

تشبه الأسبرين أو المورفين أو كليهما، لكنّنا نقع فيها ثمَّ لا نقومُ إلا بارتطامٍ مؤلمٍ بواقعٍ مخيفٍ جداً، هكذا نحنُ يا حبيبتي لا نقومُ إلا عبرَ الصّدمات، هذا ما حصلَ لي أيامَ حبيبتي السّابقة..

وهذا ما سيحصُل على الأكثرِ في أيامكِ يا ماري، أعرفُ ذلكَ تماماً أو أشعرُ به على الأقل، لكنْ لن أتركَ أيَّ فرصةٍ دون أن أعيشَ الإحساسَ فيها، لن أتراجعَ حتى لو كان الوقوعُ في المآسي والأحزان هو المصيرُ المنتَظر..

كنتُ أنتظر أنْ أنتهيَ من العملِ فقط لأراكِ، حين أصبحتُ أراكِ كلَّ يوم، لا أعرفُ كيف ولا أعرفُ لماذا!

ولستُ في صددِ التذكّرِ لأنَّ الأشياءَ المتعلقةَ بالقلوبِ تكونُ ممتعةً حتماً بلا أيِّ سبب، بل كنتُ أنتظرُ العملَ ليبدأ، لأصلَ إليكِ في النّهاية عابراً المرضى والأمراضَ والدماء، وهم جميعُهم لا يعلمون أنّني الأكثرُ مرضاً بينهم وأكثرُهم نزيفاً، فالحبُّ يا عزيزتي أكثرُ الأمراض إزماناً حين يكون مُزمناً وأكثرُ الأمراض حدّة عندما يكونُ حادّاً..

كنتُ ألمحُكِ عندما تمرّين بجانبِ مكاني، أستديرُ في حركةٍ لا إراديّة، أبتسمُ لابتسامكِ، ولعينيكِ اللّامعةِ الّتي تطالِع المكانَ كلَّه بشقاوةِ المراهقات، لجسدك الصّغيرِ الطّائرِ، لتلك الحركةِ الخفيفة، كنتُ أبتسمُ كرجلٍ عاشقٍ ينتظرُ النّزولَ من حبالِ مشنقةِ الانتظارِ ليلتقي بمحبوبته، ناقلاً لها الخبر.. ألّا شيء بعدها يستحقُّ الحياة، ولا شيء سواها يستحقُّ الحياة، وألّا شيء قبلَها كان يستحقُّ الحياة، شاكياً لصدرها الخوفَ والوحدة والألم المترعرع في كبدهِ التهاباً والتهاماً، هكذا نعيش نحنُ يا عزيزتي كَمَن يخرجُ من العتمات عبرَ ومضةِ ضوء إلى العتمات، نعيشُ حالةَ مللٍ يوميّةً وانتظارٍ أيضاً، لعلَّ ما قيل بإسم الأملِ يكونُ حقيقيّاً.. فيتحرَّك ويحرّكُ فينا ما يعيدُنا إلى رونقِ الحياة ويعيدُه إلينا...

ولكن ماذا سيفعل الأمل؟ كيف يمكنُ أن تتغيرَ نظرتُنا للحياة إذا كنا نحن نظنُّ أنّ الرّجولةَ تكمنُ في دفعِ فاتورةِ الغداء باهظِ الثّمن...

وأنَّ الأنوثة هي الجسدُ والملابسُ والعطورُ والماكياج، واستخدام التّاء مكانَ الطَاء، والدَال عوضاً عن الضّاد، إذا كنا نحن نظنّ أنَّ حُسنَ الخُلُقِ يقبعُ في الألفاظ لا في المواقف الكبيرة، وأنّ البكاءَ دليلُ ضعفٍ حتميٍّ وليس دليلَ ضيقٍ واختناقٍ أو إحساسٍ عالٍ، وأنَّ سَتر الورك يزيدُ الشّرفَ بغضِّ النَّظر عن كلِّ شيءٍ آخرَ، ويكونُ الزّواجُ حتماً هو الواقيَ من العلاقات المحرّمة، والصمتُ يا عزيزتي هو كُره، وكثرة الكلامِ تعني المحبّةَ، والسّلاحُ قوّةٌ بغضِّ النّظر عن طريقةِ الاستخدام، ومن المُعيبِ جدّاً وربما من الخطأ، أن يكونَ التّعارفُ بينَ الجنسين موجوداً أو عاديّاً، ومن المُعيبِ أكثر أن نقومَ بزيارةِ قريبٍ لنا بصفتنا المباشرة، غيرَ مختبئين خلفَ آبائنا وأمّهاتنا، ولن أخبركِ عن زيارةِ الطّبيب المختصِّ بالأمراض النّفسيةِ لأنّك تعلمين جيّداً ما تعنيه بالنّسبةِ للمجتمع، أليسَ هذا ممّا نعيشُه يا ماري؟ ألسنا نحن قتلى المعتقداتِ والأفكارِ وصدماتِ الحياة، ألم يصبحُ التّوأمُ الثّلاثيُّ السّابق ذكرُه هو عُقدةَ حياتنا؟.

***

لم أكن أبحثُ عن الحزن لأكتبَه، كان الحزنُ يكتبُني ويكتبُكِ، لم أسعَ وراءَ أيِّ تفصيلٍ من تفاصيل التّعاسة، لكنّها الحقيقةُ يا حبيبتي، الحقيقةُ الّتي بدأَت روحي تُحتضرُ في ظلّها، فأنا منذُ زمنٍ بعيدٍ لم أضحك ضحكاتيَ المُعتادة (كما أسلفتُ لكِ)، الشيءُ الوحيدُ الصّامدُ هو قدرتي على إضحاك الآخرين، وقعتُ في شباك اليأسِ ولا أعرفُ طريقَ الخلاص، نحنُ الصّغارُ الّذين يعيشون بأحلامٍ كبيرة.. هذه هي مشكلتنا الحقيقيّة، ومن خلالِها تموتُ وتعيشُ شهيّتُنا للحياة وللنّجاحِ ولكلِّ التّفاصيلِ والأحداثِ أيضاً، وفي غالبيّةِ الأمر نفقِدُ شهيّتنا لكلِّ شيء...

لهذه الحياةِ طقوسٌ خاصّةٌ يعمُّها الملَلُ -كما قلتُ لكِ- لذلك نحن بحاجةٍ للتغيير، وانطلاقاً من هذا التغييرِ نُتهمُّ بالتَغَيّر، ولو قمنا بالتّركيز أكثرَ في معنى التّغييرِ سيصبحُ أيضاً هو المتّهمَ في أشياءَ كثيرةٍ أخرى، إحداها الفراغُ الّذي نحصلُ عليه مجاناً عبر اتّهامات التَغَيّر، يغيبون عنّا لفتراتٍ طويلةٍ، وعندما نسألُهم لماذا؟ تأتي الإجابةُ بتلك التّهم، وفي الفراغِ نعيشُ بصعوبةٍ بالغة، إنّ الأسوأ في حيواتنا هي لحظاتُ الفراغ الّتي نمرّ بها رغم قِصره أحياناً، وغيابُ الّذين اعتدنا عليهم أو اعتمدنا عليهم في لحظاتٍ سابقة.. بالإضافة لغياب فِعل السّيطرة النّابع من دواخلنا، لأننا بالضبط في الفراغ... نفقدُ السّيطرة على كلِّ شيء، ونبدأُ بالبحثِ عن الهدوء والتحمُّلِ.. نحاولُ زيادةَ قدراتِ استيعابِنا.. ومن المضحكِ جدّاً أنّنا نواسي أنفسَنا، وفي لحظةٍ مباغِتةٍ يعودُ كلُّ شيءٍ كما كان رغم كلِّ ما ذكرتُ لكِ.. ويصبحُ الموقفُ تافهاً أو صعباً حدَّ الإعجاز، حينها يلملمُ العالمُ نفسه ليصبحَ أصغرَ من غرفة مساحتُها مساحةَ زنزانةٍ فرديّة.. بجوارِ سقفِها فتحةٌ سماويّةٌ صغيرةٌ، عليها تتركّزُ العيونُ وتتكئُ الأفئدة.. جدرُانها تُطبق على صدورِنا... تلكَ الجدرانُ الّتي سهرنا معها طويلاً، وتكلّمنا معَها كثيراً.. حفظنا تفاصيلَها وحفظَت تفاصيلَنا.. تبادلنا الأسرارَ والأحلامَ والقُبلات (في لحظة اتحاد)، هذه الجدرانُ أصبحت اليومَ تُطبقُ على صدورنا.. وكذلك هم بعضُ البشر (لم أكن أتخيّلُ أنْ تصبحي منهم يوماً ما).. ولكنَّ الجميعَ سيندمُ في النّهاية يا ماريّة فقط علينا أنْ نثقَ بأنفسنا ونمضي..

الجميعُ سيندمُ.. فلنقطف الياسمين ونحن نعلمُ حقيقة أنّ كلَّ من لدينا رغبة مُفرطة في بقائه سيكون من الراحلين.. وأنّ من نقطفُ له الياسمين.. هو بالتّحديدِ من يقومُ بقطفِنا، يشمُّ الرّوائح الجميلةَ، وعند ذبولنا يقومُ برمينا في إحدى اللقطات الصّادمةِ غير المصطنعة، وهو بالضبط من يقومُ بدفعنا إلى اللا حياة لنعودَ ونفكر في أيّ حياةٍ كنا، أو أنَّ ما كنّا فيه يدعى بال حياةِ حقّاً، وهذا بدايةُ الطّريق لنصبحَ أكثرَ استيعاباً، أكثر نُضجاً، وأكثر قسوةً.. وتمضي الأيام..

والآن، مع من أستطيع التحدّث؟ أتدرين يا ماري.. أصبحتُ أملك أكثرَ من ثلاثة آلاف صديقٍ وألفي مُتابعٍ على الفيسبوك.. أجهزتي النّقالة متخمةٌ بالأسماء والأرقام والصّور والرّسائل ومقاطع الفيديو، ولكنّني أعيشُ وحدي.. أُسلي نفسي بنفسي وأتناولُ الطّعام مُنفرداً تماماً، ثم أمضي وقتاً في ترتيبِ منزلي.. وأشيائي..

نعم أشتاقكِ جداً لكنَّ كبريائي يمنعني من البوح، ثم تأخذُني الموسيقا وتمضي إلى العالم الآخر، فأنا لا أستطيعُ سماعَ أغنيةٍ دونَ تخيُّلها، َيتلوني الحنين كجرحٍ لم يعرف الجفافَ من النزيفِ يوماً، وأتلوّنُ بألوانِ الذّكريات.. وتمضي الأيام..

كنتُ أجلسُ أذكر الليل بكِ، وأذكركِ به.. وأموجُ عبرَ الأمواجِ شوقاً واضطراباً آملاً الوصولَ إلى برّكِ، ثم أجلسُ أكملُ ما تبقّى من الحديثِ مع السّماء، لعلَّ السّماءَ تجبرُ انهيارَ جزءِ قلبيَ الممتلئِ بكِ، شعرتُ بقربكِ.. كما لو أنَّ لا شيءَ يفصلكِ عن ملامسةِ جسدي، للحظةٍ كنتِ أنتِ الحبَّ.. أتدرين ماذا يعني أن تكوني أنتِ الحبَّ، أنْ تشاهدي قلبَكِ يقفُ أمامَكِ.. ثم يمشي.. ثم يجلسُ.. ثم يتكلّم... وهكذا، كنتِ أنتِ هكذا، أن تكوني أنتِ الحبَّ، يعني أنْ أشاهدَ قلبي أمامي، وأنْ أكونَ أمامَكِ بكلِّ طفولتي وسذاجتي.. بلا تردّدٍ.. بلا خوف، بكلِّ أمراضي وعيوبي وعُقَدي الّتي لا تُعدّ، ولا أشعرُ أنّكِ ستمضين بدوني مهما فعلتْ، ثم آتيك لأشمَّ رائحتَكِ.. فأقومَ منها أشتمُّ كلَّ العطور.. وأصرخَ في النَّهدِ؛ أنّكَ الآن تحت السُّلطة.. فلا تتوقفْ عن الرَّنين، واعبُرْ على جسدي... فالجسدُ يوصلكَ إلى برّ الأمان..

كنتُ أطمحُ لِقِصَرِ العمر، فأرفضُ تركَ نفسي للأطبّاء، وأرفضُ إبعادَ جسدي عمّا يؤذيه، وأرفضُ كلِّ المحاولاتِ لإنقاذِ قلبي، حبّاً في تركِه بكلِّ خرابه.. لعلَّ الحياةَ تكونُ أقل.

لقد كانَ وجهُكِ علاجيَ الوحيدَ.. وروحُكِ اختصرَت كلَّ الأطبّاء، واليومَ فقدتُ الوجه والرّوحَ والعلاج والأطبّاء.. فازدادَ ذاك الطموح، ازدادَ لأفعلَ بعدَ ذلك ما لم أفعلْه في حياتي، فأتغلّبُ مثلاً على حُزني.. وأرتشِفُ من النّبيذ جرعةً بهدفِ النّسيان وأُخرى أصبُّها على الذّاكرة، وأقولُ ما لم أقلهُ في حياتي، فأخبرُ الكبارَ أنّ أفعالَنا بريئةٌ من كلِّ ما قيلَ عنها.. وأنّ التّفاصيلَ اختنقَتْ على شفاهنا كثيراً لكنّنا لم نقلها يوماً..

وأنّنا كنّا نعيشُ بسعادةِ قتيلٍ عرفَ أنَّ الموتَ قد يُنجي من الحياة، بل وربما يَعني الحياة.. فذهبَ واختارَ الحياةَ بطريقةٍ أُخرى، وبشجاعةِ شجرةٍ ظلّت واقفةً رغمَ تهديدِ الخريفِ لها على مدارِ حياتِها.. مضى إلى ما اختاره..

لقد ازداد ذلكَ الطموحُ لأطلبَ ما لم أطلبه في حياتي، أنْ تصمت الموسيقا لبعضِ الوقت، ويُعزَفَ لحنُ النّهاياتِ بديلاً، أنْ تُلوَّنَ الصّورُ بالأبيضِ والأسود فقط، وأُنقَلَ إلى مكاني بسيارةٍ واحدةٍ فقط، وألّا يأتيَ أحدٌ إلي، فلم يَعد للمجيء معنى، قد أصبحَ اللقاء مستحيلاً كما كانَ العشقُ أيضاً مستحيلاً..

ثم أشعرُ أنَّ الخيال يُتعبني.. فأقومُ إلى المشيّ في شوارع المدينة مُرهَقاً.. أبحَثُ عن فتاةٍ تشبهُ المُعجزات لأعشقها عشقاً كالمعجزة، وأهذي بها طوالَ العمر، فأجدُكِ هناك في جوارِ السّماء.. تتمدّدين كالبحر على زندها، أجدكِ وأنتِ فرصتي الوحيدةُ لأكونَ عاشقاً.. وبكِ يزدادُ تألّقي، لربما أعثرُ على ذلك الشّخص الّذي يستطيعُ الاستماع كما يفعلُ الشّاطئُ في احتضانِ بَوحِ السُفنِ أثناءَ استراحتها أو سفرها، ذلك الشّخصِ الّذي يستطيعُ الاحتضانَ في أيّة لحظةٍ كما تفعلُ الأمُّ في لملمةِ أبنائها، ذلك الشخص الذي يتحدثون عنه كثيراً وبطرقٍ وتأثيراتٍ مختلفة.. ولا أعرف أين يكون..

كنتُ أظنُّ أنّني سأكتبُ أغنيةً أو نصّاً روائياً تسيلُ منه عاطفتي، وتسيلُ عليه مدامعي، ما كنتُ أعرفُ أنّني سأكتب كل شيء في سطرٍ واحدٍ كهذا:

إن كنت لا تدري فإني أخبركَ، أنّكَ بيني وبين نفسي تعيش كالقلقِ..

ثم أجلسُ وأفكّرُ، كيفَ يمكن لبعضِ السّطورِ أن تختصرَ كلَّ حياتِنا بكلماتٍ قليلةٍ وباختصارٍ شديد، وكيفَ نتحوّلُ -نحن البشرُ- من حياةٍ كاملةٍ إلى بضعةِ كلماتٍ يقولُها قائلٌ، وربّما لا تُقالُ ولا يهتمُّ بها قائل، في الحقيقة يا ماريّة.. لم نكن مخطئين.. بل وكنّا واعيين جداً.. لكن، ثمّةَ أقدارٌ لا نستطيعُ إيقافها.. مهما كانت اللّحظاتُ مؤلمةً أو مُخيفة، ومهما احتضرت الرّوح وبَقِيت، ثمّةَ أقدارٌ لن نستطيعَ إيقافَها، ومن خلالِها نتحوَّلُ إلى أضحوكةٍ للتاريخ.. إلى عبرة يقدّمُها الشّوقُ للمشتاقين، وتنبيهٍ شديدِ اللّهجةِ يقومُ به الحبُّ لكلِّ العاشقين، ويصبحُ حبُّنا تهمةً يوجّهُها القاصي والدّاني لنا، وبها تُغتصَب أنوثةُ مشاعرِنا.. وغداً نقفُ خلفَ القضبان... نحن المتهمونَ بالحبّ.. فلماذا يا عزيزتي يصيرُ الحبُّ خنجراً واللهفةُ تجلِدُ أجسادنا!؟ لماذا؟ ألسَنا من سلالةِ عشتارَ ونعيشُ في وطنها؟ أليس في تاريخِنا عشق؟ ألم نقرأ عن الحبّ، وكان أسلافُنا من العشّاق؟.

(٥)

بين الجدران العتيقة كُنّا، في الهدوءِ والنارِ كُنّا، نَتَشَبَّثُ بالدُّخان كُنّا، نَتَمَسَّكُ بالرّيح كُنّا، في السّاعة الخامسة بعد العشرين كُنّا، في اليوم الثاني والثلاثين كُنّا، ثم عرفنا أنَّنا كُنّا في المستحيلِ..

ميّار

كنّا نعبرُ الفجرَ سيراً على القلوب، وأجفانُ القلوبِ بالعشق مبتلَّة، أصرُخ.. وأنا على الخطِّ الفاصلِ ما بينَ الإيمان والإلحاد.. أحبّكِ، وتصرخُ.. وهي على الخطِّ الفاصلِ ما بين الإيمان والإلحاد.. أحبُّكَ..

نسيرُ معاً يداً بيد.. دونَ أن نعرفَ إلى أينَ المسيرُ، نتراشَقُ فيما بيننَا.. ونتراشَقُ نحن والعالمُ.. بالدُّموعِ والضَّحكات والقُبَل، تحاولُ القلوبُ اجتياز حدودِ أقفاصِها، طمعاً بأن تنفتِحَ ممرّاتُ الدّمِ على بعضِها.. وتمتزجَ الدّماء..

كنتُ أعيشُ مهووساً بها.. كأنّها غلافُ الدّماغ أو ربّما غلافُ الأرض، كنتُ أهذي بتلك القُبلةِ الّتي جمعَتْ شفاهَنا بجانبِ النّهر يوماً، أو عندَ موقفِ الباصِ مرةً.. بذاك الدفءِ الّذي يجتاحُ أكتافي عندما تكونُ في الجوار.. بذاك الفخرِ الّذي كنتُ أشعرُ به عندما نكونُ على طاولةٍ واحدة، بتلك المتعةِ الّتي كنتُ أعيشُها عندما نشربُ معاً من كأسٍ واحدة.. وبعينَيها حيثما رأيتُ نفسي سُلطاناً..

أتحرّرُ من نفسي لأتنفَّسَ الهوى، وأضعُ سيفَ الكلماتِ في كبدي.. أغرزه، ثمّ أسحبُ السّيفَ بالكلماتِ والكبدِ معاً، بعضُ الأشياء تكونُ كالأصدقاء، ربما أفكارٌ.. ربما أمراضٌ.. ربما كلماتٌ.. وربّما السّماء.

كانت كعروس البحر، وكنتُ معَها أصيرُ كالبحر ثم تُبحر بي بعمقٍ وبلا توقُّف، لا شيءَ يستطيعُ إيقافَ امرأةٍ قرّرت الإبحارَ في قلبِ رجل، ولا شيءَ يستطيعُ إيقاف إبحارِها أيضاً.. حتى حين تتوقّفُ هي عن الإبحار، يكونُ ذلك قدراً فالنّساءُ كالإيمان إذا ما احتلَّ قلبَك لا يغادره إلّا معه، ولا يستطيعُ القلبُ الشكَّ فيه..

كنتُ أجلسُ على التّاريخِ أخبرُه.. أنّها فريدةٌ جداً، لا حبَّ بعدَ حبّها، لا شيءَ مثلُها، ولا شيءَ يُشبهُها، كانت الماءَ في حوضِ وردةٍ أرهقَها العطش، كانت القمرَ في مدينةٍ أذلَّها الظلام.. وذاكَ اللّونُ القاني المميّزُ في زحمةِ الألوان الفاقعة...

أرتمي على صدرها.. كوليدٍ سقطَ من قمّةِ جبلٍ عالٍ، ليعيشَ اللّقاءَ مع أمّه الضّائعة، هناكَ طلبتُ منها أنْ تحرَّرني مما مرَّ قبلَها.. أنْ تستعبِدَني وترميَني فيما بعدها فقط، أنا الطّبيبُ الّذي عالجَ أمراضاً لا تُعَدُّ لكنّه أضاعَ علاجَ قلبه.. وأنا مريضُ الهوى الّذي وجدَ الشّفاءَ صدفةً بينَ أصابِعها..

هناك على صدرها.. كانت الدُّنيا تلملمُ بعضَها وتمضي، ويصبحُ العالمُ كلُّه غصنَ شجرةٍ أزهرَت في لحظةِ وصولِ الخريف، هناك على صدرها.. تستجيبُ السّماءُ لكلِّ الدّعوات، يتعثّرُ النّداءُ بالنداء وتختنقُ الكلمات، هناك على صدرِها.. يعيشُ الألمُ بين الإجهاضِ والإجهاض، وتورِق الوجنات، يعودُ الصّمتُ سيّداً ويُكملُ الحديثَ نفسَه بالنبضات، بالشّفاه والقُبَلِ والحَلَمات، حتى يحترقَ القارئُ.. وتحترِقَ الآيات..

من نحن إذاً، إن لم نكن نبضة في قلب؟ أو جملة عشق تعيش في حنجرة؟ أو سيفاً ممدداً بكاملِ جهوزيّتِه في غمده ينتظر الموعد؟ من نحن يا سادتي إذا لم نحاول أن نكونَ، تاسع أيّامِ الاسبوعِ، أو الدّقيقةَ الأولى بعد السّتين في ساعة واحدة؟ من نحن إذا لم يكن باستطاعتنا.. فضُّ بكّارة قصيدةٍ يخشاها الجميع، أو استيعابُ بوحِ العطورِ حين تتحدَّثُ عن الأكتافِ والأعناقِ والأصابع؟.

***

كوني لي طفلتي المُدللةَ يا ماريّة.. فأنتظرُك عندَ الباب لأصطحبَكِ، أرافقُك طوالَ الطّريقِ وأبتاعُ لكِ قطعَ الشوكولا الّتي تحبّينها، ثمّ أضعُ يديَ اليمنى على الظهرِ وعيناي تمهّدُ الطّريق لتقطعين الشارعَ بأمان حتى تصلِي إلى برّ مُهجتي، وأفتحَ لكِ بابَ مسكنِكِ، فتدخلين كعادتكِ بالقدمِ اليسرى أحشائي، تخطفين اسمي من شفاهِهنَّ.. تنتشلين جثّتي من بين أثدائهن.. وتعبثين بالقلب أو بالرئة وحدَكِ، ثم أمسكُ يدَكِ لأخبرَكِ أنّني أخافُ أنْ تكوني فرصتي ولا أستغلُّها، وأخافُ أنْ تكوني نهايَتي ولا أنتهي..

كوني لي حُزني.. فأعودُ إليك مهما شربْت، مهما في الفرحِ بلغْت، مهما رقصْت ومهما ضحكْت، وأجلسَ أنا و وحدَتي في أحضانكِ.. نشتمُّ العيشَ كلَّه، ونُلقي السُبابَ على البشريين، ثم نشكرُ الرّبَ لأنَّه جمعَنا نحن الثلاثةَ معاً، كوني لي حزني.. فلا أنا أخون حُزني ولا الحُزن كان يوماً من الخائنين..

أو كوني الوطنَ، فأعيشَ لكِ وأعيشَ بكِ.. وأنتميَ إليك، وأكتبَ للشّمسِ أبياتَ شِعرٍ تتحدّثُ عنكِ وأقدّمَ الاخلاصَ والحب والولاء..

أو أنحنيَ لكِ كلَّ صباحٍ وأُطيلَ في الانحناء...، أوليس الوطن هو الرّوح ومن أجله تفنى الرّوح؟.

رقصتُ بهواها، على النغمِ المدلّلِ، مُختلِجَ الإحساس ومُستباحاً، كأنني غنيمةُ إحدى معاركِ الهوى، هزمَتني، أسرَتني، واعتقلَتْ الفؤاد وما حولَه، ثم بدأ موعدُ الحساب..

كم من النِّساء عرفْت، كم رافقْت، كم صاحبتَ، كم هويت؟ وأمام الغضبِ الثّائرِ المتمثّل بالهدوء، ارتبكْت..،
همستُ بسكوتيَ الخائف: "الماضي كلّه لكِ إن أنتِ تستطيعين قتلَ الأموات، أو إحياء الأحياء..."...

فلتكوني أنتِ الشّيءَ الّذي يأخذُني في ساعات الفجرِ الشّقيّة، ويقطعُ أخباري، لا أعودُ بَعدكِ ولا ينساني العالم، أذوبُ كقطعةِ السُّكر في فنجانِ قهوتكِ.. وأستلقي كالكُحلِ فوق الجفون، تتعتَّقُ روحي.. ويصحو في حشوتي قتلى الجنون....

- بتعرف ميّار، بحبّك كتير.
- ماريّة أنا كمان حبّيتك كتير.
- بتعرف في أشيا غريبة بتصير بالحياة.
- بعرف وكمان بعرف إنّو ما حدا بيعرف كيف بتصير.
- وكمان ما منقدر نحكيا أو نعبر عنها، حسيت معك بالأمان.

- الأمان! شي كتير كبير.

- بس بحس فيه لما كون معك.

- هاد أحلى شي ممكن اسمعو.

- بتعرف يمكن بالحب بتصير الدّنيا احلى.

- لأ مو يمكن.. أكيد، لأنّو روحنا بتصير أحلى عيوننا بتصير أحلى لهيك بتصير الدّنيا أحلى.

- وما في أحلى من الحب.

- أكيد.

كانت الأيّامُ تمضي هكذا.. كقافلةٍ طويلةٍ من النَّمل السائرِ لا يقفُ أمامَ عزيمَتِها شيءٌ، ليسَ لها بداية.. نهايتُها الّلا نهاية لكنّها ممتعةٌ، وأيضاً مثل النّارِ في الهشيم..

ربما وقعتُ في العشق مجدّداً (رُغم كلِّ محاولاتِ التّفادي) لكنّني حقاً أخافُ من تجربة عشقٍ مأساويّةٍ جديدة.. ومن النّهايات المُدمّرة، فأنا لا أعرفُ عيشَ الحبِّ ببراءة، ولا أحبُّ الحبَّ ما لم يقطّعني لأشلاءَ تتناثرُ في كلِّ مسافاتِ هذه المعمورة، لا أحبُّه ما لم يكن بمقدوره التغلغلُ في جميعِ أجزائي.. وإحراقي بتفاصيلي كلِّها دُفعةً واحدة لكن على مهل، "الاحتراق عشقيّ السبب ممتع للغاية"، ما لم يكن باستطاعتي أنْ أنحنيَ فجأةً لأخلعَ عن قدمي حبيبتي كعبَها المرتفعَ بحدودِ خمسةَ عشرَ سنتمتر.. أو خفضَ صوتِ الضّجيجِ من حولي لأسمعَ بصفاءٍ دقّاتِ قلبِها وقلبي دقّةً تلوَ الأخرى..

ولأستمتعَ بصوتِ الهواءِ المارّ بجوار عنقي قادماً من أنفِها أو من ثغرِها، أحبُّ النّظرَ الطّويلَ في عينيها.. في نثرةِ شفتِها العلويّة، في حبّاتِ البُنّ المتناثرةِ على الجسدِ الأبيضِ مخفيّةً ومرئيّة...

أسأل نفسي؛ كيف استطاعت تراتيلُ وجهِها أن تلتقيَ مع بعضِها البعض، أنْ تكونَ بكلِّ هذه القدرات، وبأيِّ حقٍّ يُسامحُ النّهدُ وهو القائمُ بعمليّاتِ توريطِ الرّجالِ بالهوى، وغسلِ الأدمغة، كنتُ أفكّرُ كثيراً لكن دون جدوى..

في العشقِ يتّحِدُ الحقُّ والباطلُ.. كما يقف الهلالُ بجانب الصليبِ ويبتسمان، يعيشُ الكرهُ مُلتحياً بالمحبّة وتعيشُ المحبّةُ رغمَ كلِّ كُرهِها، يصيرُ الزَّمنُ القصيرُ طويلاً.. حتى تُحسبَ الساعاتُ بالأعوام، ويصبحُ الزّمنُ الطّويلُ قصيراً..

كالمارّين في رفّة عين، العشقُ هو أنْ تستيقظَ تلكَ الرّوح الرّاكدة بينَ الأكتاف.. أو لا تعرفَ معنى الركودِ من الأساس، أنْ يعرفَ القلب أنَّ العَودَ أحمد.. ويعودَ رغم الرّحيل، ألّا تبكيَ العيونُ لا دماً ولا دمعاً ولا ماء، أنْ نلملم أحزانَ السنين.. وترتجَّ الكواكبُ كلُّها على أثرِ ضحكةِ لقاء، أن يلتقيَ الوردُ والأملُ واللّيلُ والنّارُ على مائدةٍ واحدة، أن أكونَ أنا مجرّدَ نقطةٍ على أحدِ الحروف في اسمها.. أو شيئاً يشبه الفاصلةَ.. وتكون هي الميمَ التّي تضمّني في بداية اسمي..

نعم، وقعتُ في العشق، أنا الهاربُ من الهوى، ونزيفُ البشرِ من قلبي لا يتوقف، لا أعرفُ كيفَ ولماذا كنّا معاً.. لكن روحَها اللّطيفةَ.. ولباقةَ الكلماتِ حينَ تخرُجُ من بين شفتَيها المبتسمتين.. حضورُها الطاغي رغمَ نعومتِها.. شَعرُها.. سحبةُ أكتافِها والمرفقُ والمعصمُ والأيدي.. كلُّ تلكَ التّفاصيلِ وأكثر كانت تدفعُني لأحبَّها بسذاجةِ الأمل و واقعيّةِ اليأس، حتى ظننتُها في يومٍ من الأيّامِ ساحرة..

أصبحتُ خائناً لكلِّ شيء، كتبي وأوراقي والأصدقاءُ الملتفّون حولَ طاولةِ الشّراب.....، الشيءُ الوحيدُ الّذي استطاعَ استباحةَ وفائي هو سحرُها، حتّى الأماكنُ الّتي أحبُّ ارتيادها فقدَتني لكنّني لم أفتقدها..

- ميّار ضمني أكتر، ضلك معي.

- رح تبقي أنت؟.

- أكيد ميّار، وين بدي روح.

- ما بعرف يعني قلت بلكي بدك تروحي مثلاً.

- لأ مارح روح.. فتشلي عالفرح يمكن تلاقيلي ياه بشي مطرح.

- إيه طيّب يلا.

- هههه تضرب.

- لك ليه.

- لك هيك.

- إذا هيك شي تاني.

- بحبّك.

- بموت فيكي.

- بتعرف موجوعة كتير.. راسي رح ينفجر.

- خلينا نحكي غزل.. بلكي الوجع بيتوجّع وبروح.

- عيونك حلوة ميّار.

- لو مانك فيها ما كانت حلوة.

أصبحت خائناً.....
ولأجل السلبيّةِ الّتي تعيشُ في داخلي..، أنا المرفوضُ في أغلب حالاتي، أنا الرّضيعُ الجائعُ الّذي لا يعرفُ كيفيّةَ إطعامِ نفسِه.. ولا حتى تعلّمَ الكلامِ ليقولَ تلك الحقيقةَ المؤلمةَ فيساعدَه أحدُ السامعين....، أنا المعتقَلُ في وطني، أنا المسافرُ من غيرِ هويّة.. وبلا جوازِ سفر، بل أنا الزّوجُ الّذي لم يسبق له الزّواجُ قط.. ولم يحضُر أحدٌ موعدَ زفافِه وربما لن يحضرَه أحدٌ أيضاً، وأنا الّذي أتناولُ الكافايين قبلَ موعدِ نومي بسبعِ دقائقَ ثمَّ أنامُ بعمقٍ مخيف.. وأصحو كالمدمنين على كوبِ مياهٍ غازيّة سوداء، أنا الّذي ضحّى بكلِّ شيءٍ دُفعةً واحدة، ثم جلسَ ينتظرُ تضحياتِ الآخرين.. ففوجئَ بغبائه وسذاجته.

هكذا أحببتُها، بكلِّ غبائي وبلا اتّزان..، بحقيقتي وعيوبي.. بلا أيِّ عنتريّات، وأحبّتني هي، فأصبحَتُ قطعةً نادرةَ الوجود، مزيجاً تكادُ تظنُّه خياليّاً...، كنتُ أشعرُ برغبتها بي فأنطلقُ كالحمامِ في السّماء، وإذ بغيَرتِها المجنونةِ تُطبِقُ عليّ، لكن بعضُ النّساءِ لديهنَّ طريقةٌ خاصّة بما يفعلْنَهُ فنقبَلُ منهنَّ كلَّ الأفعال، وهي كانت هكذا..

ثم يَخطفُ اشتياقي لها.. تلكَ المسافةَ ما بينَ الكلمةِ والكلمة، وما بينَ الدّمعةِ وأختِها، أشعرُ بالدّوارِ مصادفةً، فيميلُ رأسي لصدرِها طالباً اللّجوء السياسيَ هناك، وأجلسُ أتأمّلُ الكُحلَ حتى أرتطمَ بالهواء.. أوليسَ الارتطامُ بالهواء يكفي لتأكيدِ الحب؟

كنّا كحبّتين من الغيث أرهقَتهما المسافةُ الطّويلة ما بين الغيمِ والأرض.. وسطرينِ كُتبا ليُكملا بعضَيهما البعض، في داخلنا رسائلُ سماويةٌ و ورود، وفي العيونِ تنامُ الأحلام..

كنتُ أملكُ قلباً هائماً بكلّ ما فيه، خطواتُه شاردة.. وخطواتي في شرود، والعقلُ أيضاً في شرود، لا المكانُ له أهميّةٌ ولا الزّمان له وجود، كنتُ أشكّكُ جداً في وجودي، هل حقاً كنتُ موجوداً قبلَ وجودِ ماريّة!؟.

***

لن أنكرَ أبداً أنّها استطاعت وضعَ الفاصلةِ بينَ ما مرَّ قبلَها وما كانَ بعدَها، كأنّها قامَت بنقلي من غرفةٍ إلى غرفةٍ أُخرى في منزلِ حياتي، وأظنُّ أنّها وضعَتني بقسمِ العنايةِ المركّزةِ في مشفى الحبِّ، هناك فتحَت وريدي..

ضخَّت شيئاً من دمها باعتبارِه الدّواء، فمن يكونُ على سريرِ الحب ويستطيع مقاومةَ أدويَتِه...؟!

على الأرض الّتي أعلنتها أرضاً بلا قانون.. مشينا معاً، في الشّارعِ الفاصلِ تماماً بينَ الأمل واليأس، التحمَت الأصابع.. ووُلدَ الوعدُ متورّطاً بالعشق مثلَنا، مثلما تورّط الشّعبُ بالحياة، مثلما تورّطَ..

العصفورُ بالطّيران.. والسلحفاةُ بالبطء، تماماً كما تورّطَت الرّصاصةُ في قتلِ القتيلِ ومضَت..

لم تكن الحكايةُ حكايةَ زمنٍ، إنمّا كانت حكايةَ عُمقٍ.. والعمقُ يبدأُ بالعناق، وفي عناقها تمرُّ النّبضات لأجلها، مروراً مُدويّاً في الصّدر والعروق، ويزدادُ العمق في كلِّ تنهيدةٍ تكونُ حاضرةً على الكتف أثناءَ عناق..

كنّا دائماً بجوارِ المكان الّذي نحبُّه، نتجاهلُ ما في داخلِنا.. خوفاً أو هروباً من نظراتِ النّاسِ المُستفسرةِ وأسئلتِهم الغبيّة، وحيثُ كانَ من الممكنِ ألّا أكونَ أنا، حاولتُ أن أكونَ أنا رغمَ رفضِها المبطّن لذلك..

- بتعرف ميّار، نطرت كتير لحتى لقيتك.

- اايه يا ماري.. وأنا إلي زمان عم دوّر على حدا يفيّقلي إحساسي.

- وفاق إحساسك؟؟.

- إي فاق معك.

- طيّب ليش بتضل مكتئب؟.

- حابة تعالجيني دكتورة؟.

- أنت اليوم أولى من أيّا حدا، طالما أنا بحبّك فأكيد حابّة.

- مممم طيّب، مع إنّي بحب حالي هيك.

- وأنا بحبّك هيك كمان، بس أنت فيك تكون أفضل.

- رح كون، إنّي فكّر بطريقة حزينة مو يعني إنّي ما كون أفضل.

- طيّب شو يلي بخليك تفكر بطريقة حزينة.

- أووه أسباب كتير وأفكار كمان.

- متل شو؟.

- إذا بدي احكي كل شي رح طول كتير، والمشكلة الأكبر إنّي مو متعود احكي.

- بظن عندك الشجاعة الكافية لحتا تحكي كل شي أو تجرّب على الأقل.

- رح جرّب طبعاً.

- يلا .

- إذا قلتلك إنّو في كتير ناس معذبين بسببي مثلاً، شو بتكون ردّة فعلك.

- مممم، مين هدول الناس.

- ناس مرّوا بطريقي أو مرّيت بطريقهن.

- بحبوك.

- إيه، كتير.

- و أنت؟.

- أنا يا ماري بتعذب من جوا لما بشوفهن، لأني بعرف كتير منيح شو يعني الحب من قلب واحد، بعرف شو رح يصير بعدين، بعرف

كيف هالحب بيبقى عايش مهما طال الزمن، بعرف وجعو وذكرياتو شو بيعملوا بالواحد فينا.

- الحق معك، بس أنت إلك ذنب بهالشي؟.

- بسأل حالي كتير عن هاد الذنب، أكيد إلي ذنب بس أنا ما بعرفو، يمكن الحنية.. يمكن الحلاوة، يمكن المكانة، ويمكن القسوة والهجران، يمكن حاجتي لوجودهن، يمكن الشغف.

- ويمكن يا ميّار.. الأشخاص المحبوبين بيدفعوا أثمان غالية كتير بس مو معروفة هي أثمان شو بالضبط.

- تماماً، بس بتعرفي ما عندي مشكلة ادفع كل هي الأثمان المهم يكونوا مبسوطين بحياتهن.

- طيّب شو في كمان أسباب أو أفكار.

- ممم، الوحدة، انت بتعرفي إني عايش لحالي، عشت سنين طويلة لحالي.. مر علي ظروف كتير في أشيا كانت حلوة وفي أشيا كانت بشعة، الحقيقة إني إنسان وحيد.

- مع إنّو في ناس كتير حوليك.. وخصوصاً الصبايا.

- حتى وأنا معهن بكون وحيد.. ماحدا قدر يطلعني من هالشعور، وبالمناسبة الشخص يلي ما بيقدر ينسيكي الوحدة.. بزيدها عليكي أكتر، هاد واحد من قوانين الحياة المجهولة.

- ما فيك تحكم على هاد الشي ميّار.

- مبلا.. بقدر احكم عالأغلبية، لما بتكوني مع شخص وما بتلاقي حالك معو.. بتفكري بالأسباب، حتى وانت معو بتصيري تتمني يخلص الوقت وترجعي لحالك.

- إي بس.

- بس شو، هيك بيتحول هاد الشخص ليكون سبب أو دافع للوحدة.

- صح.

- وجنب الوحدة، في غربة.. الغربة مو بس إنّك تتركي أهلك وبلدك، الغربة كمان إنّك تحلمي وما تقدري تخلي الأحلام واقع مثلاً، أو إنّك تعيشي بلا حب.. رغم إنو كلنا عم نكابر على الحب بس غيابو شي مو حلو.

- ما نحن منكابر على الوجع.. لولا الوجع يلي منعيشو بالحب ما كنا رح نكابر عليه.

- النتيجة بكل الأحوال، إنّو منكون بعاد عن الحب، متل إنّك تعيشي حياة بدون رغبة بالحياة، شو بتكون هالحياة بلا الرغبة؟.

- بالحقيقة ما بتكون شي.

- في نتيجة مشتركة للوحدة والغربة، هي الألم.

- يعني هيك بصيروا وحدة غربة وألم.

- هههههه، إي بصيروا هيك.

- إي تمام، وشو كمان دكتور ميّار؟.

- التفاصيل ماريّة ، أنا بعيش على تفاصيل كتير صغيرة، بتهمني.. بحبا.. وبتعلق فيها.

- هاد الشي حلو.

- إي حلو لما بتضمني هالتفاصيل ما تروح، أو ما تخرب، بالحقيقة هي التفاصيل الصغيرة أكتر شي بروح وبيخرب، تخيلي إنّو أبسط الأشيا تعكر مزاجك، يمكن كلمة ويمكن شوية غبرة، أو وقعة موبايل.

- لا شكراً ما في داعي أتخيل.

- ههههه طيّب يا ماري متل ما بدك، على فكرة الناس ما بتعرف معاناة الانسان المزاجي حتى مع حالو.

- إي اضحك انت.

- معذبون هم، من يعيشون على التفاصيل الصغيرة.

- بحبك بكل تفاصيلك الصغيرة ميّار، كل تفصيل فيك بحبو لحالو.

- يخليلي ياكي.

- ولا يحرمني منك.

(٦)

جئتكَ من بين براثن الفراغ، لا ناجياً ولا كما هم يحسبون..

ميّار

ثم مشيتُ بعيداً.. لأبقى وحيداً.. أنا وما قيلَ عنّي وأيضاً ما لم يُقال، ما فعلته وأيضاً ما لم أفعلْه، ما حلمتُ به وتمنّيتُه وما لم يكنْ في حلمي أو بينَ أمنياتي، كنتُ مكسوراً جدّاً رغمَ وسامتي ورغمَ أنّني لا أؤمنُ بأنَّ الحظَّ يتخلّى عن أصحابِ الوسامة، كنتُ خالياً تماماً من كلِّ أعراضِ الحياة، رغمَ أنَّ حياتي كاملةٌ لكنّني لطالما شعرتُ بالنّقص.. كان فؤادي ينبضُ عُزلة، ومع كلِّ نبضةٍ يزداد الابتعادُ أكثر..

قبل ماريّة، كنتُ غريباً جداً، أعيشُ كحرفٍ عربيٍّ يتوسّطُ الأحرف الانكليزيّة تمرُّ أمامَهُ الكلماتُ دونَ التفاتةً له، كان قلبي، كشعرةٍ شابَت في خصلةِ شعرٍ يشبه بسواده الليل، ينظرُ إلى الحيّ كأنّه لم يَعش.. وينظر إلى الميّت كأنّه لم يَمت، كان خارجَ تقنيّةِ الإدراك تماماً، وما انتظرَه لم يأتِ، لكنَّ ما لم ينتظرْهُ قد أتى، إنّها غرابةُ الحياة.. كان مُلفتاً للأنظار جداً، وهذه إحدى ميزاتِ القلوبِ العاشقة، بل وأكثر.. فهي أخطرُ الميزاتِ وأكثرُها كشفاً..

الحزن يا قارئي ممتعٌ مثلُ الحبِّ تماماً، مثلُ الإبحارِ بلا شطآن، مثلُ الطيران بأجنحةٍ لها حجم السّحاب، الحزن أيضاً بإمكانه أن يكونَ الأخَ والصّديق، فيه تكون الرّوحُ أقربَ إلى السّماء..

حتى السماءُ تسمعُ نداءَ الحزين مثلما تسمعُ نداءَ العاشق (تتعاطف معه السماءُ أكثرَ من العاشق، إنّها الرّحمة)، إنّه تجربةٌ كبيرةٌ جداً، وحياةٌ كاملةٌ أيضاً..

بعد ماريّة، أصبحتُ أشدَّ غرابةً، أضحك لأيِّ شيء.. أشعرُ بالفرح وأعومُ فوق أمواجِ الطّمأنينةِ المولودةِ من وجهها وهي تلامسُ الأفقَ الّذي لا حدود له، ماريّة غيّرَت لونَ حياتي بالكامل.. أدخلَت نغمات البيانو على ألحانِها، استطاعت استدراجي إلى الحب وأظنُّها هناك في الحبِّ قامت بتعديلي، لكنّها قامت بعد ذلك بإعدامي شنقاً بحبال التعلّق.

هناك على الصّخرة الحائرةِ بينَ الحبِّ واللّا حب، بين شغفِ اللّقاءِ الّذي لم يحصل وغضبِ انتظاره، بين الكتفِ والكتف الآخر، في المساحةِ الّتي ما بين الكلماتِ، بين الأصابعِ، بين الأهدابِ، بين الدّعواتِ، بين رائحةِ التراب عندَ الفجر والتراب، أعيشُ أنا ويعيشُ المساكينُ أمثالي..

شيء ما دفعني للانتقامِ من نفسي.. فأعلنتُ حرباً كنتُ فيها جيشاً مهاجماً يقودُه التّهورُ، وجيشاً مدافعاً تحت قيادةِ الكبرياء، بدأَتْ ساخنةً وأصبحَت فيما بعدُ حرباً باردة.. ثم حربَ استنزافٍ، وأظنُّها لن تنتهي....

بجوار نهدٍ شامخ كتبتُ: هل لكَ أنْ تنتظرني.. فأعودَ إليك قبلَ الرّحيل وبعد الرّحيل وخلالَ الرّحيل؟ هل لكَ أن تنتظرني فأنهيَ معاركي مع نفسي شهيداً وأُدفن هنا بقربكَ؟ هل لكَ أن تنتظرَني فأخونَك مرّاتٍ ومرّات ثمّ أُسجنَ هنا لديكَ وتكونَ أنتَ سجّاني...؟

انتظرني لأكتبَ للعالمِ قصّتي الّتي لا تكتبُ وأهديَك إحدى نُسخِها، انتظرني فأنا انتظرتُ كثيراً كي ألتقيَك.. كي ألتقيَ الهدوء والأمان..

كي تعودَ حياتي إلى مجاريها، هل لكَ أن تنتظرني أم أنكَّ أيضاً تكره الانتظار مثلي؟.

أكملتُ المشيَ، سرتُ أراقبُ تعابيرَ الوجوه لعلّي في أحدِ التعابير أجد الأمان، أو تصطدم يدي بإحدى الأيدي فأشعر صدفة بالحنان، أو ربّما أصطدمُ كلّي بفتاةٍ ما في لحظةِ شرود، ويفجّرُ هذا الاصطدام إحساساً جميلاً، فيكون أحدَ الحوادثِ الّتي لا تُنسى، كما يحدثُ في مشاهدِ السينما، أكملتُ المشي أملاً بأن يعبرَ نهدٌ أمامي يلحظُني، ثم يبتسم..

رغم أنّني لستُ ذلك الشّرقيَّ الّذي ينتظرُ صدفةً مهما بلغت لذةُ الصُّدف.. ولا يحبُّ انتظارَ شيءٍ يملكُ احتماليّةَ ألّا يأتي، أَحذرُ أنا وأُحذِّرُ من أشيائي لأنّها أشياءٌ ناقصةٌ دائماً على استثناء حريّتي، أي؛ أنّني لا أملكُ ردَّ فعلٍ يروي عطشَ الأخرينَ دائماً.. فأنا في الحبِّ أخرجُ من البابِ الخلفيِّ دائماً..

أنا نهر متناقضٌ جيّاشٌ تتحاربُ قطراتُ مائِه فيما بينها، جيشُ برودٍ لا يخشى أحد ولا يعرفُ الرّحمةَ أو الغفران، أنا مواطنٌ بسيطٌ في دولةٍ صغيرةٍ لا أملك حقَّ توطين أحدٍ فيها أو حتّى تجنيسه، وفي الحقيقة ربّما لا أحظى بحقوقي كمواطنٍ أيضاً، هذه الدّولةُ هي دولتي أنا، دولةٌ قامت على الأحلامِ والخيالاتِ يعيشُ المواطنُ فيها كجملةٍ تعيش في أحدِ سطورِ كتاب.

فعلاً كنتُ أعيشُ بين الكلماتِ، ولأجلِ الكلمات، هذا الحلمُ الّذي عشتُه وحدي.. والطّموحُ الّذي بنيتُه وحدي، كنتُ أجدُ روحيَ الحقيقيّةَ هناك في الأحرفِ، في ذلك العالم السّاحر.

كانت كتفي، كانت اطمئنانَ يدي حينَ تعملُ واطمئنان قدمي عندما تسير، وفي مرورِ الأيّام، أصبح كلُّ ما يعنيني خمسةَ أحرفٍ فقط تبدأُ بالميمِ المتسلّقةِ إلى الألف، ثم تتزحلقُ على انحناءِ راءِها باتّجاه الياءِ وتنتهي بتاءٍ رُبطَت وكأنّها زنزانةُ عشقٍ (ماريّة)، وسيبقى اسمُها هو الاسمُ الّذي ينادي به لساني حينَ يبدأ بالغزل وحينَ يبدأ بالعتب، ومع مرورِ الأيّام سيكتشفُ لساني، كم كانَ أحمقاً وغبياً.

***

ومع مرورِ الوقتِ أيضاً، سنكتشفُ نحن أيضاً كم كنّا سذَّجاً وأغبياء، سنسأل أنفسَنا كيف مرَّت النّظراتُ دونَ أنْ نفهمَها، كيف مرَّت المواقفُ دون أنْ نعيَها، لماذا لم نقرأ ما كان خلف السّطور مختبئاً وما كان خلفَ السّؤالِ منتظراً، وفي الحقيقة، لا نحنُ كنّا نعرفُ الحقيقةَ، ولا الحقيقةُ كانت تعرفُنا أو تعرفُ أنّنا لا نعرفُها، لكنّنا سرْنا معاً متوازيين دون أن نعلمَ أنّنا سنتقاطعُ في نقطةٍ يختارُها القدر، وعند تلكَ النقطةِ ينتهي التّوازي، عندها تحديداً نعرفُ بعضَنا جيداً..

وفي الحقيقة أيضاً البعضُ يتساقطونَ من حياتِنا كالورق الأصفر في الخريف، والبعض يتفتّح كالزّهرِ الملوّنِ في الرّبيع، بعضُنا يعيشُ طورَ السّقوطِ فقط، لكنَّ بعضَنا الآخرَ لا يعيشُ طورَ التفتّح فقط، فلا بدَّ للخريف أن يمرَّ علينا، ولا أظنُّه سيمرُّ مرورَ الكرامِ ويمضي.

في ذلكَ الوقت يصبح انفجارنا قريباً جداً، على إثرِ حريقٍ نشبَ في الظّنون والآمال، الظّنونُ الّتي ظنناها بهم، والآمالُ الّتي قمنا بتعليقِها على أكتافهم، أولئكَ الّذين كانوا حولَنا وطلبوا مدَّ الأيادي فمددناها حتى كادَت تتمزّق، أولئكَ الّذين كانوا معنا ورمشَت أعيُنُهم في أعيننا فأحببناهم ودخلوا القلبَ مستعمرين مستوطنين، مهجّرين أهله، ثم قاموا بتهجيرنا حرماناً، أولئك الّذين أنقذناهم في الجريمةِ وكانوا سُعداءَ بنا، ثم جعلونا نحنُ الجريمة..

كيفَ أخبركَ الآن، أنّ الّذين منحتَهم السرَّ كانوا هم الفضيحةَ، والجنونَ وراءَ كلِّ ما كتبته من قبلُ وما سأكتبه من بعد، ولا أعرف كيف أخبرك الآن أنَّ الّذين انتظرتهم ليقفوا بجوار قلبك، قد وقفوا ولكن للفُرجةِ فقط لا أكثر، وأنَّ الّذين انتظرتَ دخولَهم لبواطنك قد دخلوا حقاً، لكنّهم دخلوا مخرّبين إيّاها عابثين في الأحلام..

هذا جزءٌ من الحقيقةِ الواقعيّةِ الّتي لا نتوقّعُها أبداً، فيها الأملُ واليأسُ.. ويبقى القرارُ لنا في جعلِها تصبُّ النّارَ علينا أو تصبُّها على صانعيها.. سنبقى بين أنيابِ الوحدةِ الّتي تحاول تمزيقنا.. وسيبقى فينا الطفلُ الضّائعُ يبحثُ عن أحدٍ يحتمي به، ويكون له كدفقةِ دمٍ تسيرُ في الشرايينِ تحييها وتعودُ في الأوردةِ تنعشُها مروراً بالأعضاء عضواً تلوَ الأخرِ معلنةً عودة الروح، هناك "بين أنياب الوحدة" تملؤنا الدّموعُ وتأبى المقَلُ البكاءَ فنقعُ تحت سطوةِ الكبرياء لا أحياءَ ولا شهداء، لكنّنا سنعود إلى الحياة.

الحياةُ التي تتخلَّى عنّا بكلِّ ما فيها ومن فيها في لحظة واحدة، قد يبدو المشهدُ مؤثّراً للغاية رغمَ أنّه من المشاهدِ المألوفة عادةً، كمشهدِ الفقاعاتِ الصغيرةِ المولودةِ على سطحِ بركة الماء، رغم كونِه بسيطاً ومألوفاً أيضاً إلّا أنَّ العالمَ ينطوي هناك..

ليصبحَ المشهدُ الصغيرُ هذا أحدَ أبوابِ الحزنِ الكبيرةِ والذّكريات، ومن يتابعُ التّفاصيل بدقّةٍ يعرفُ ذلك جيداً، جرّب تأمّله لبرهةٍ ولا مناصَ لكَ من أنْ تحزن أو أنْ تبتسم...

ولأنّنا في حياةٍ تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ وجهَ إنسانٍ نصفُه يضحكُ ونصفُه الآخرُ يعاني العبوسَ في الوقت ذاته، ستضحكُ الدّنيا لنا وتعبسُ بنا في لحظةٍ واحدةٍ أيضاً..

وفي صمتٍ تدورُ الأيّامُ، لكنّها تَفقدُ الرّوحَ، الرّوحَ الّتي كانت هي الدافعَ الأساسيَّ للدّوران، ربما لسنا نحنُ الّذين وضعوا القانونَ، لكنَّ القانونَ طُبّق عليهم بأقسى صوره وتفاصيله..

وتبدأ النارُ تكوي قلوبَنا.. لا أعرفُ هل هذا كيُّ الشفاء؟؟ أم كي الألم؟ أم أن الكيَّ يبدأُ دائماً بالألمِ وينتهي دائماً بالشفاء.. على استثناءِ كيِّ الحبِّ لنا! نحنُ الّذين لم نستطع يوماً كتابةَ رسالةٍ كاملةٍ ولم تتكلّم عنّا رسالةٌ كاملة، حالُنا حالُ ميّار ولكن لا أظنُّه هو بالضبط حالَ ماريّة! خاصّة بعد هذا الكتاب...

ماريّة.. كانت قطعة مغرية للحب بالنسبة لميّار.. بعد حفلاتِ حبٍّ كبيرةٍ وكثيرة أكبرُها كانت حبيبةً سابقة، وهي بصمةُ الإبهامِ في صدرِ ميّارَ الّذي كان فعلاً أحدَ المجانينِ في هذا العالم، ويبقى الجنونُ هبةً من السّماء وموهبة، أما ميّار فكان لماريّة شيئاً يعيدُ لها ما خسرَته من الثّقة والأنوثة عبرَ الأيّام، وربّما طريقَ انتقامٍ، أو طريقةَ استفزاز، فوجودُ الرّجلِ المحبِّ بجانب أيّةِ فتاةٍ يجعلُها مميّزةً وتحتَ رقابةِ العيون وربّما الألسُن، هذا ما أرادته ماريّةُ رغم طيبتها.. إنما يقعُ الإنسانُ تحتَ حلاوة الرّوحِ أحياناً ويسعى لإنقاذها بكلِّ الطّرق الممكنة، نحن البشريّون حينَ نشعرُ بالنّقص نبحثُ عن أيِّ شيءٍ أو أيِّ شخص يُوقفُ معنا سيلانَ الأيّامِ الّتي تسيلُ كما لو أنَّ لا طعم لها ولا لون...

من تلك البوابةِ وعبرَ التعلّقِ الشّديدِ استطاعت ماريّةُ الدّخولَ إلى ميّارَ الفارغِ من الحياة.. ولا يمكنُ أن يصمدَ أيُّ رجلٍ يعيشُ في الفراغِ أمامَ كيدِ امرأة تريدُه لشيءٍ ما..

فنحنُ أثناءَ الفراغِ نصبحُ أكثرَ تعلّقاً بالأشياءِ وبالأشخاصِ وبالمدى وحتّى برائحةِ الدمية المبلّلة بالعطر القليل، نصبحُ أكثرَ اشتياقاً وأكثرَ حنيناً وأكثرَ حبّاً وأكثرَ لهفةً ويغدو الشّغفُ في دواخلنا كعاصفةٍ كبيرةٍ تضربُ جسداً أعزلاً يجلس على شاطئ البحرِ بين الذّكريات والآمال...

وعلى ذكرِ الذّكرياتِ، دعنا نتجاوزُ الأزمةَ ونعترفُ بأنّنا أردنا الرّحيلَ في لحظةٍ ما، أردنا الرّحيلَ عن كل شيء لأنَّ ما قالَتهُ الخرافةُ عنّا وعن حيواتنا لم يكن حقيقياً، حيثُ أنّ الخرافاتِ كانت تتكلَّمُ كثيراً عن المحبّين في الحياة وعمّا يقولَونه وما يفعلَونه، عن مواقفهم وخدماتهم وروعتهم، لكنّها لم تأتِ على ذكرِ عددِهم الضّئيلِ على الدوام، ولن تجرؤَ أبداً أن تقولَ أنّهُ ربّما يُساوي الصّفر، فالشجاعةُ كانت في أنْ تخبرَنا الخرافةُ أنَّ كلَّ ما نعيشُه سيكونُ ذكرى فقط لا أكثر، وأنَّ السّعادةَ الموجودةَ في الواقع ما هي إلّا أقساطٌ تأتي لنكملَ الصّمودَ أمامَ الألم، لنقفَ في وجه الفراقِ متأمّلين بالغد وبالقادمين..

هل قاموا بقتلنا فعلاً، أم أنّهم قدّموا لنا خبزَ الحياة؟ مَن المجرمُ حقّاً.. الفاعلُ أم مُقدِّم الأداة؟.

كلُّ شيءٍ كانَ يوحي أو يتكلَّمُ عن الحبِّ الحقيقيّ.. الحبِّ في الوعيِ وفي اللّا وعي، حتى أصبحَ هذا الحبُّ هو المنشودُ وأصبحَ هو -بعد التجربة الاولى أو الثانية ربّما- طموحاً لنا كأفرادٍ في ظلِّ فقدانِه..

كلُّ شيء كالتّمثيلياتِ.. المسرحيّاتُ.. الموائدُ والأفكارُ والأخيلةُ، مقاطعُ الموسيقى والأغنيات، العناوينُ الروائيَّةُ، النصوصُ الروائية.. وحتى الروائيّون والروائياتُ، ونستمرُّ في مشوارِ الحياة هكذا..

مجرَّدَ باحثين طموحين نسعى للحصولِ على الشّيء، رغمَ أنَّ للبعضِ منّا بعضُ التّفاصيلِ المجنونةِ الّتي لا يمكنُ استيعابُها، كأن نخافَ على كلِّ الاشياءِ المحيطةِ بنا كخوفِنا على أرواحنا، أن نعيشَ علاقةَ التعلّقِ بها وتأخذَ تأثيراً طاغياً ما لم تَغرف منها أعينُنا أو تكونَ في متناولِ اليد، فتتحوّلُ تلكَ الأشياءُ إلى مدخَلٍ للسعادة أو الحزن، كأن يكونَ لك علاقةٌ مع مشروبِك الخاص وربّما الكأس، أو تعشقَ إحدى الزوايا الّتي اعتدتَ عليها واعتادَت عليك في إحدى غرفِ البيت أو في العمل.

معذبون هم من يعيشون على التّفاصيلِ الصّغيرة، فلا حبَّ حقيقيٌّ مولودٌ لنا يغنينا ويغنيهم عنها إلّا فيما ندر.

فلتبقى معي.. نسهر معاً.. فراشتين على زهرةِ هذا العالم

ونشرب معاً.. من المساحةِ الملوّنةِ فوقَ شفةِ الفنجان

خُذني بعنايتك المشدّدة.. فالآنَ يحتاجُ جسدي للأوكسجين

وأحتاج لأنْ أولد مجدداً، بلا العمر وبلا الحياة وبلا الذاكرة..

فلتبقى معي.. نسهر معاً.. ونكتبُ رسالةً إلى هذا العالم

أنَّ العمر كان مؤلماً، والحياةَ كانت أكثرَ إيلاماً..

والذكرياتُ يا حسرتي قادتنا إلى منتهاه

فأضعنا المسيرَ وأضعنا القافلة.. ثم الرّفقاءَ والأفكار

وعلى حجرٍ من الرّخامِ أنزلنا الدّمعةَ الأولى..

فلتبقى معي.. نسهر معاً.. ضعْ يدك على القلبِ متجسّساً
جُسَّ النبض، نبضةً تلوَ النبضة، خفّض ضجيجَهُ
ثم إسرق بعض النبضات.. أعلن المزادَ عاماً لمن يُحبّ
أخبر أوّلَ المتقدّمينَ بالعروض، أنَّ هذا النّبضَ له، ولا تمضي..

بل ابقَ معي، نسهر معاً.. نَعُدُّ ما تبقّى لنا من النبضات
نخبرُ النّبيذ أنّنا سنشربُه رغمُ أنّنا خلقنا سكارى
وأنّنا جلسنا طويلاً ننتظرُ الخبر، ولم يأتِ إلينا الخبر
وكذلك خُضنا اللّيلَ بانتظارِ القمر، ولم يطلع علينا قمر
وكان بيننا وبين الأمل خجَلْ.. ونثراتٌ من عبيرٍ وقُبلْ
كابرنا كثيراً على الملْ.. وما وجدنا أيَّ شيء مُنتظَر..

ابقَ معي.. نسهر معاً.. فليس السؤال متى، إنما السؤال كيف..
كيف مات الحوار بيننا.. حين تَحاور الشجر؟
وكيف كُتِبَ علينا أن نربحَ الرّهانَ من قبضةِ القدر
وكل ما ملكتُه منك.. بعضُ النّدى على خدٍّ من خفر..

ابقَ معي.. نسهر معاً.. ونلتقي مرَّةً واحدةً فقط
دعنا نلتقي يا عزيزي، نلتقي مرَّةً واحدةً على الأقل
لتحيا القصيدة.. ويولدَ الكاتبُ من تحت القافية
والنقطةُ المولودةُ في آخر السطر.. تتألّقُ كالرّاوية
دعنا نلتقي أرجوك.. ولو لمرةٍ واحدة.. فأنا كالوطن
وأنت تشرقُ على الوطن.. كالشّمسِ بعد غيابٍ عائدة..

ابقَ معي.. نسهر معاً.. لأصلّيَ في عينيك
وأرتّلَ الآيات تسبيحاً.. وأترُكَ أضلعي ساجدة
دعنا نلتقي لمرةٍ واحدة.. كما يفعل البحر
ويلتقي مع البرّ.. كما يلتقي الوليدُ بالوالدة
فأنت ستكونُ نصَّ براءَتي.. وسببَ الشهادةِ والشاهدَ..

وابقَ معي.. نسهرُ معاً.. فقد بقيَ لي هنا نبضة
يفصلني عن الموتُ نبضةٌ.. وعن الحبِّ نبضة
يفصلني عن اليأس نبضةٌ.. وعن الحياة نبضة
ابقَ معي.. فأنا لا أملك في نبضي تلك النّبضة
ابقَ معي.. لعلك تكونُ أنتَ تلكَ النّبضة...

ثم، تحملُ متاعَكَ يا قارئي وتمضي بدونِ سابقِ إنذار، كأنَّك ما عدتَ تحتملُ وقعَ الأحداثِ المتتاليةِ والمتراكبة، كأنَّك تريدُ الاغترابَ عن الغربة، والعودةَ حتى لو كانت عودتُك كالغرباء بعدَ زمنٍ بَدى وكأنَّه بلا حدود....

ما استطاعَ أحدٌ الوقوفَ أمامَك في إحدى الليالي الماضية، أو منْعَكَ رغمَ الأخطاءِ والعثراتِ الكثيرة، ورغم افتقادِك للكثيرِ من الشّغف، كانت لديكَ القدرةُ في أنْ تدخلَ كلَّ الأبوابِ حينما يريدُ مِزاجُك دخولها، حينما يريدُ قلبك، تذكّر ذلك دائماً، فاستخدام القلب للعقل هو الصورةُ الأجملُ للإنسان وليسَ استخدامَ العقلِ للقلب، أتمنّى أن تستطيع فعل ذلك...

كنتَ ناجحاً كما كنتَ فاشلاً، لكنّك غصصتَ بضجيجِ الأفكارِ وثقلِ الخوفِ الكبير، غرقتَ في تفصيلِ التفاصيل، كانَ الله في عونك وعون كل عقلٍ لا يعرف الراحة أبداً، لأنّه يحبُّ التّفاصيل..

قد أخبرتُك قبلَ الآن، أن عاداتِنا السيئةَ هي تفاصيلُنا الحزينةُ ولكن بشكلٍ آخر، واليومَ أخبرُك أنَّ عاداتِنا الغريبةَ هي تفاصيلُنا المقتولةُ وأيضاً بشكلٍ آخر، اليومَ أخبرُك أن عاداتِنا الانطوائيّةَ هي تفاصيلُنا الموجعةُ وأيضاً بشكلٍ آخر.

فامضِ.. احمل متاعَكَ وامضِ بلا إنذارٍ سابق.. لأنّك ما عدتَ تحتملُ وقع الأحداثِ المتتاليةِ والمتراكبةِ الّتي قامت بإرباكِكَ، امضِ وكأنّك تريدُ الاغترابَ عن الغربة، فتعودَ حتّى لو كانت عودتُك كما الغرباءُ بعدَ زمنٍ ليسَ له حدود، لقد ماتَ بكَ الإحساس، ويكونُ متاعُكَ قلبُكَ بما فيه..

أشواقكَ الموجّهةُ والوَليدةُ في اللّحظةِ الأكثرِ فوضويّةً على الإطلاق، الكثيرُ من الحنينِ لِمن لا يستحقُّ الحنين.. والكثيرُ من أرتالِ الذّكرياتِ المجرمة، متاعُكَ هو شريطُ حياتكَ مُمنتجٌ بأيادٍ ماجنة.

أنتَ الّذي عبرتَ كلَّ صعوباتِ حياتِكَ بصمت، ومررتَ من أقذرِ الطُّرق وأكثرِها إمراضاً دونَ أن توسعَ الدّنيا ضرباً وسُباباً.. غفوتَ أيّاماً طويلةً لوحدكَ بين العُزلةِ والأحلام، بينَ ألمِ الرّوحِ ومحاولاتِها للاستيعاب، أضعتَ المسيرَ مرّاتٍ عدّة، وعدت تشحَذُ الهِممَ وتحمِلُ الأملَ لعلَّ الوصولَ يكونُ قريباً..

أنت الّذي عبرتَ من إحباطهم حين أحبطوك.. من صُراخِهم.. حينَ صرخوا في وجهِك، حينَ لم تكن تعلمُ أنّها ستوقظُ الألمَ بداخلهم، تلك الجملةُ الصّغيرةُ والبسيطةُ والمختصرةُ الّتي قلتَها في تعبيرٍ عاجلٍ أو رأي، كأنَّ صراخَهم كانَ الطّريق..

بعضُ التّجاربِ الّتي تخوضُها.. لابدَّ أن تثبتَ فشلَها بل ويكون فشلُها كبيراً، والفشلُ في بعضِ التّجاربِ يكونُ قَدَراً أحياناً، "الحبُّ مثلُ هذه التجارب"، لكن لا تختبئ فإنَّ نصفَ الحياةِ هو الشّجاعة ونصفُها الآخرُ هو التّحدي، ومن يريدُ الحياةَ عليه أن يقفَ دائماً في وجهِها، فالحياةُ ليسَت لمُقاتلٍ هربَ من المعركة.. ظنّاً منهُ أنَّ الهروبَ هو المنقذُ، وليست لِشابّةٍ وقفتْ أمامَها بخجل، الحياةُ يا قارئي لِمن حمَلَ شجاعَته بينَ أمتعتِه وفي روحِه أينما رحلَ متحدّياً كلَّ شيءٍ حتّى نفسَه..

ستمرُّ بجانبِ الكثيرين وتعيشُ معهَم ظناً منك أنهم قد تمنَّوا لك الخيرَ والحبَّ في آخرِ صلاةٍ قاموا بها وليس العكس، وما وجهّوهُ لكَ من كلماتٍ قاسيةٍ كانَ توجيهُها لأجلِك، لا لإرضاءِ أنفسِهم وإرواء غرورِهم وغيرَتِهم، وما كان في تعبيرِ وجوهِهم كانَ حزناً لك وعليك.. لا فرحاً مختبئاً خلفَها، ولكن مَن يعرف الحقيقة؟

قليلونَ هم وربّما نادرو الوجودِ من يستحقون الظنَّ الحسَنَ فعلاً، فالحاسدون هم أنفسُهم المعجبونَ ولكن في وقتٍ آخرَ وظرفٍ آخر، وأنت ابقَ كما كنت ولن تخلوَ الحياةُ من المحبة، أرجوك لا تفقد الثقةَ بنفسِك أو بالحياة والأيّامِ مهما حدث...

ثم يغرُّك الأملُ "أحياناً"، ربّما بعضُ الأشخاص من حولك، ربّما الظنون أو الأحلامُ، حتى الثقة يمكنُها أن تغرّك، فإنَّ ما يوجدُ في حياتنا يشبه كثيراً مائدةَ طعامٍ قامَ بتحضيرها طباخٌ ماهرٌ، الكثيرُ من الأطباقِ المُزيّنةِ بحرفيّةٍ عالية، والمقبّلاتُ الشهيّة من كلِّ ما لذَّ وطاب لنا نحن بني البشر، والكثير من المشروباتِ الملونة، لكن انتظر قبل أن تكيلَ المديحَ له انتظر وتذوّق الطّعمَ فليست كلُّ الأطباقِ تتميّزُ بالطّعمِ اللذيذ وهكذا هي الحياة، لذا كن حذراً. لا ... أرجوك .... لا تفقد الثقة.

***

للكلماتِ رهبةٌ يا ماريّة، مثلُ صوتِ رصاصةٍ أُطلقت لتجرحَ صوتَ الموسيقى، وتكسرَ لحظاتِ هدوءِ العالم، حين تنتهي أخرُ قارورةِ عطرٍ في المكان، أو آخرُ قارورةِ نبيذٍ موضوعةٍ على الطّاولة..

اليومَ أذكركِ، مثلَ تلك الرّصاصةِ وصوتِها.. مثلَ الكلماتِ الّتي أصبحتْ تتردّدُ في مسامعي على رأس كلِّ ليلٍ، مثل فكرتي أنَّ الأدباءَ العظماءَ يموتونَ قهراً ولوحدِهم بلا أحدٍ أو شيءٍ إلّا الكلمات، ومثلَ إيماني بأنَّ العاشقَ يحتاجُ ليدَي معشوقته كي يكون، فمن غيرهما لا كينونةَ له، مثلَ حاجتي لسيدةٍ أصرخُ باسمها مثلما صرخ نزارُ لأجلِ حبيبته حين قال في إلقاءِ قصيدته الشّهيرة: بلقيسُ، يا بلقيس، يا بلقيس. فزلزلَ الدّنيا، وقد نجحتِ أنتِ بإثباتك أنكِ لست تلك السّيدة، لكنّكِ مررتِ من هنا، فأذكرُكِ ثم أدخلُ في اكتئاب..

أذكرُ جيّداً كيفَ طلبتُ منك اللّقاء، اللّقاءَ الّذي لم يكن بحاجةٍ للطّلب بل كانَ شيئاً بديهيّاً جدّاً نقومُ به حبّاً فيه، كلَّ يوم، حينَها أجبتِ بانشغالِك وذهبتِ أمامَ دهشتي، فجلستُ أفكّرُ بما يجري حقّاً، وأسألُ نفسي عن نفسي.. حينَها شعرتُ أنَّ النّهايةَ قد اقتربت، لكن لم أكن أتخيّلُ أن تجريَ الأحداثُ بهذه السّرعةِ أبداً..

جاءَ اتصالُك بشكلٍ مفاجئٍ وأنت تقولين: " ميّار يلّلا تعا ناطرتك بالكافيه على طاولتنا" حينَها أتيتُك بالسّرعةِ والفرحة لأجلسَ أمامَك وأتلقّى جملَتكِ عندما قلتِ لي: "ما طاوعني قلبي روح بلا ما شوفك". كانت فرحتي آنذاك تساوي فرحةَ الكونِ بأكمله، وفي ثوانٍ معدودة، نسفتُ شعوري تجاهَ النّهاية، ومنعتُ نفسي عن إجابةِ أسئلتي الّتي وجهتُها إليها، كان هذا اللقاء الأخير...

لو كنتِ تعلمينَ كم كنتُ أحتاجُ الحبَّ في تلك اللّحظات، لربّما كنتِ كرّرتِ جملتكِ تلكَ ألفَ مرّة، الحبُّ الّذي ما استطعتُ التّعبيرَ عنه ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال، حاولتُ التّحدثَ وما استطعت، حاولتُ الكتابة وما استطعت، أتدرينَ يا ماري.. نحن لا نستطيعُ التّعبير عمّا نريدُه بسهولة، أو عمّا يدورُ بداخلِنا، لا بدَّ أن نختارَ الكلماتِ بعنايةٍ فائقة، ثم نردّدُها في أنفسِنا كثيراً حتى نختنقَ بها وتختنقَ هي في حناجرِنا انتظاراً، لا نحنُ نقولُها ولا هي تقوى على الخروجِ من أفواهِنا، نحنُ تلكَ الفئة الخاصّة جدّاً من أبناءِ آدمَ نحتاجُ لفئةٍ خاصّةٍ أيضاً تستطيعُ فهمَنا والتعاملَ معنا من بنات حواء...

نعم، ماريّة.. أصبحُ إنساناً سيّئاً عندما يتراكمُ ثِقلُ الحياةِ على صدري، لكنّني لا أصبحُ خائناً مثلاً، ربّما أكونُ حزيناً أو مُحزناً.. أكونُ ثقيلاً.. ربّما أكونُ "نكديّاً" وسوداويّاً أيضاً، أفكرُّ بالتوقّعاتِ السّلبيةِ أكثر، وأتصرّف كالصّغارِ تماماً، لكنّني لا أكونُ خائناً أبداً، لم أخنكِ، وأعتذرُ اعتذاراً شديداً لأنّي لم أخنك.

بعدَ تلكَ الفرحةِ بأيّامٍ قليلةٍ، ورغمَ ملاحظتي أنَّ التّعابيرَ لديكِ قد اختلفَت، شيءٌ ما تغيَّر فجأةً! ارتعد قلبي، راسلتُكِ لأخبرَك أنّي أريدُ الخروجَ معكِ لتناولِ الغداء، الأمرُ لا يروقني فقط بل ويهمُّني أيضاً، أنا الّذي كنت حبيباً أو كنتُ أعتبر نفسي كذلك، وددتُ لو نلتقي يا حبيبتي لعلَّنا نستطيعُ اجتيازَ الغرابةِ أو الغموض، يومَها أرسلتِ لي تخبرينني أنّك لن تستطيعي الخروجَ في اليوم التّالي مباشرةً، واليومُ الذي يليه ستكونُ إجازتُك، وأنَّ الإجازةَ للعائلة، ثم رتّبتِ أيامَك لتخرجي مع الأصدقاءِ أربعةَ مراتٍ متتالية (و منهم زملائُنا) ثم وجدتُ أنّكِ قد سافرتِ معهم أربعةَ أيّامٍ جديدةً، لا أعرفُ يا ماري بأيّ غباءٍ كنتُ أعيش! بأيّ سذاجةٍ كنتُ أحاولُ فهمَ الأمور! ولا أعرفُ هل يغفرُ لي بنو البشرِ إنتمائي إليهم؟ وبعدَ كلّ ما جرى عرفت أنّنا قد انتهينا تماماً، نحن اللّذَينِ لم نبدأ بعد، وعرفت أنّكِ الآن تهربين إلى شيءٍ آخرَ، أو ربّما في الواقعِ إلى رجلٍ آخر..

ومع ذلك فإنّني لم أكن أريدُ خسارتكِ، لأنّي أعرفُ أنَّ سقوطي في الحبِّ لا يتكرّرُ كثيراً، لكنَّهُ عندما يحدثُ يكونُ مدويّاً، فأخسرُ كلَّ أصدقائي، أبتعدُ جدّاً وعن كلِّ شيءٍ سواهُ، أتراشقُ أنا وحياتي بالإهمال، أُصبحُ لحوحاً، متجاوزاً كلَّ خطوطيَ الحمراءَ، وخطوطَ الشّرق حتماً وخطوط الغربِ أحياناً، في الحبِّ أتعرَّى تماماً يا ماريّة، من كلِّ ألقابي، من كلِّ صفاتي، أخلعُ عن روحي شريعَتها ليصبحَ الحبُّ هو العقيدةَ فيها وهو الحَكم...، في الحبِّ أظهرُ بهيئةِ طفلٍ أحمقٍ عابثٍ لم يكبُرْ بعد، بل ولا يريدُ النّضوج، وأحبُّ نفسي حينَ لا تكونُ حبيبتي موجودةً، أحبُّها أكثر حين أعلمُ تمام العلمِ ألّا أحدَ قد نامَ في انتظار عودتي، فإن كانت نرجسيَّتي عاري، فإنّي أفتخرُ بهذا العارِ يا ماري.. أكثرَ من فخرِ باريس الّذي تشعرين به عندما تنظرين إلى قمّةِ إيفل، ولولا نرجسيَّتي تلك لَما استطعتُ اجتيازكِ أنت الّتي كنتِ إحدى العقباتِ الكبيرةِ في الأيّام..

ومع ذلك فإنّني لم أكن أريد خسارتكِ، هذا الّذي دفعَني للبحث عن حلٍّ يضمنُ لي وجودَكِ يا عزيزتي، وبدافعِ الحب.. حضَّرتُ سلاحي ووجهتُ رصاصَتي الأولى إلى الاتفاق الّذي كان بيننا حين قلنا؛ أنّنا كلُّ شيءٍ ولسنا أيَّ شيء، فقتلتُه!

نعم، نقضتُ عهدي ولكن رغبةً منّي بأن نكونَ دائماً كلَّ شيءٍ على عكسِ ما يفعلُه الرّجالُ عادةً.

هذه الحياةُ يا ماريّة تشبه المذبحة، لا بل هي مذبحةٌ حقيقيّةٌ جدّاً، فباستثناءِ العقل، نحن لا نختلف عن المواشي كثيراً، كلانا يأكلُ ويشربُ وينام، كلانا يركضُ في الأيّام، وكلانا يُذبَح في نهايةِ الأمر على يد جزّار ما، التقينا به مرّة واحدةً فقط فوقعَ اختيارُه علينا.. وربّما لم نلتقِ، لكنّه أيضاً وقعَ اختيارُه علينا عبرَ اتفاقٍ هاتفيٍّ مثلاً.. أو لأنّنا في ربيعِ العُمرِ مثلاً، ورغمَ علمِنا بأنّنا سنُذبَح نذهبُ إليه بلا أيِّ دافعٍ للهرب،

وأنا في تلك المذبحة أتمدّد وحدي على فراشِ العزلةِ مُنطوياً على نفسي، أتمدّدُ ولا فرقَ لديَّ بينَ الحياةِ والموت، أو بينَ الصّمتِ والصّوت، ولا حتى بين السّلامِ والاستسلام، فلماذا تضخين بي الحياة ثم تتركينني وحيداً؟

كيف أخبرُ بلادي يا ماري، أنّني أنا الّذي احتضنتُ العالمَ يوماً ما.. يومَ تعبي لم يحتضنّي أحد، ولم يجدني أحدٌ رغمَ ضياعي المرئيّ للجميع، كيفَ أخبرُها أنّنا قد تشابَهنا في الهجران.. وفي المأساةِ، في الحبِّ والتّضحية والأثمان، كيفَ أقف على ضفافِ نهرِها، وأحدُّثها عن الحزنِ مجدّداً، بأيِّ وجهٍ أقابلُها وأجولُ شوارِعها، كيفَ أفعلُ كلَّ هذا معَها وهي الّتي اعتادَت عليَّ لها وحدَها، كيفَ أبرّرُ لها نزوتي الآن يا ماري، وأقولُ لها أنّني عدتُ وحيداً كما عرفَتني طوالَ عمري..

هل تذكرين فنجانَ قهوتكِ الأمريكيّة، وابتسامتي المرسومةَ على ثغرِك الجذّاب، وابتسامتَك الّتي لم تفارق وجهي منذُ حديثِنا الأوّل، هل تذكرين مقاعد الخيزرانِ في المقهى الّذي التقينا فيه للمرّة الأولى، يوم كان فستانُكِ الأسودُ متألّقاً،
وأخبرتِني أنكِ فتاةٌ عاديّةٌ جدّاً، وأنَّ الطبيباتِ لا يختلفنَ كثيراً عن الباقيات، إلّا في مكانِ عملهن... ويومَ بدأتِ تحسبين لي.. كم من المرّاتِ وجدتِني متصلاً عبر الانترنت، هل تذكرين مقاعدَ الجلد في المقهى الّذي التقينا فيه عندَ اللقاء الأخير..؟

لم أكن أريدُ خسارتَكِ، لأنني وُلدتُ مرّاتٍ ومرّاتْ من الخسران.. ربّما لازلتُ أثقُ في قدرةِ الخسارة على ولادتي، لكنّني لم أعد أثقُ في قدرتي على أن أكونَ مولوداً، فالشّجاعةُ يا ماريّة لا تكمنُ دائماً في أن نولَدَ بعدَ نهايةِ شيءٍ ما، أحياناً يتوجَّبُ علينا أن نقفَ لنواجهَ تلك النّهاية، لنأخذَ منها كما أخذَتْ منّا، أن نعيشَها بكلِّ تفاصيلِها، ونتأمَّلَها بكلِّ مفاصلِها، أن ننظرَ إليها بملءِ أعينِنا، لنعرفَ كيف نوجّهُ رصاصاتِنا، وكيف تكونُ رصاصاتُنا قاتلةً حتماً، الشّجاعةُ يا عزيزتي تكونُ أيضاً في اقتحام الحزنِ كما هي في الدخولِ إلى الحبِّ، كما هي في أخذِ القرارِ للقيامِ بالتّدخلِ الجراحيِّ السّريعِ على القلب ولكن بنسبةِ نجاحٍ ضئيلةٍ، كما هي في قرارِ الانتحار..

ولأنّي فعلاً لم أكن أريدُ رحيلَك، تحلّيتُ بالشجاعةِ وجئتُ حالماً بإمساكِ يدك كلَّ العمر، أردتُ من روحِك أنْ تلملمَني حين بدأَت الحياةُ تبعثرُني، وحينَ شعرتُ بخطرِ الفقدان، لكنَّ الحقيقةَ يا حبيبتي، أنّنا (وفي العموم) نحلمُ فقط، نحنُ شعبٌ اعتادَ على وجودِ الحلمِ في يوميّاتِه، يعيشُ معه وفيه ولأجلِه، ثمَّ تبقى أحلامُنا مجرّدَ أحلامٍ، وننتقلُ للعيشِ في واقعٍ مختلفٍ تماماً عن كلِّ ما نحبُّه ونتمنّاه، لأنّنا رُبّينا بتكرارٍ فاضحٍ لِما عاشه أباؤنا وأمّهاتُنا في بيوتِ أهاليهم، والآن نُلعَن، يَلعنونَنا كجيلٍ كاملٍ على فرضِ أنّهم حرّروا القدسَ سبعَ مرّات..

وقاموا بتعديلِ العالم برمّته، يَلعنونَنا متناسين تماماً أنّنا نتاجُهم، يَلعنونَنا وهم يخبروننا أنّنا لم نرَ شيئاً بَعد، ولا أعرفُ ماذا يريدون أن نرى أكثرَ ممّا رأينا!؟ يرمونَ على أكتافِنا ثقلَ التّكنولوجيا، والتّطور الحاصل بالإنترنت....

أوَتدرين..؟ لقد دمّرنا الانترنت فعلاً يا عزيزتي، لكنَّهم لا يعرفون، لقد دمّرتنا مواقع التواصلُ الاجتماعيُّ.. دمّرنا التواصلُ الّذي لم يكن اجتماعيّاً أبداً، حتى أنّنا لم نعد نشعرُ بشيء -بل على العكس- كلُّ الجمالِ الّذي نقومُ به يندثرُ ليصبحَ هباءً، كلُّ الأحاسيسِ الّتي نقدّمُها لا تصلُ لأصحابِها، وإن وصلَت... فتصلُ إليهم مشوّهةً تماماً، أو مغلوطة، لكن مَن ذا يشعرُ بمعاناتنا؟ من يسمعُنا ويكونُ معَنا أو يصنعُ لأجلِنا حلاً؟ بالطبع لن يقومَ بذلك أحد، هم فقط يلومونَنا، وفي أحسن الأحوالِ "يعاتبوننا".

حلمتُ بكِ، ولستُ أخجل من هذا أبداً، كان عليَّ أن أفعل أيَّ شيء، يبقيكِ إلى جواري، ربما كنتُ طفلاً أو ظهرَت طفولَتي في مشهدٍ ما، لكن ما الفائدةُ يا ماريّة من أن تكوني حبيبَتي وأكونَ أمامَكِ ممثّلاً؟ ما المعنى من وجودِ حبيبةٍ لي أصلاً إذا قمتُ بإخفاءِ بعضي أمامَها؟ على العكس يا حبيبتي، كنتُ أمامَك بكلِّ حقيقَتي، بكلِّ عيوبي وأخطائي وصفحَاتي السوداءِ قبلَ كلِّ شيء..

كنتُ أغفو معكِ، ثمَّ أصحو إليك، ويكونُ يومي بكاملِ تفاصيلِه لديك، لم أستعن بالكذبِ لأخفيَ عنك وجودَ النّسوةِ في حياتي، كنتُ أخبرُكِ بكلِّ شيء، فقد كانت حياتي مُلكاً لكِ، أضحكُ لضحِكِكِ، وأحزنُ لحزنكِ، كنتُ أحتاجُك أكثرَ ممّا يُخيَّلُ لكِ، وفي غرفتي الباردةِ، انتظرتُك، بجوارِ الشّرفة المطلّةِ على الأزمانِ، انتظرتك، انتظرتكِ كثيراً، ثمّ ذهبتُ كعادتي إلى فراشي، أستلقي على طرفي الأيسر كعادتي أيضاً..

أضمُّ وسادةً أو دميةً إلى صدري بقوّة لأعصرَها وأعصرَ قلبي معها فأفسحَ له مجال النّزيفِ الصّامت..

من الّتي تستطيعُ بعدَ ذلك، فتحَ دماغي قاصدةً مكانَ الذّاكرة، لتمحو ضحكتَك تلك من هناك، في حضن من سأنام يا ماريّة بعدَ ذلك؟ على يدِ من سأضعُ رأسي مطمئنّاً، هل أتزوج؟ هل سيكونُ زواجي هو الحلَّ؟ بالطبع لا.. ما ذنبُ تلك الفتاةِ الّتي ربّما تكونُ زوجتي لأذهبَ إليها مستأصَلاً من أعماقي، ما ذنبُها لأذهب إليها مُضحكاً هكذا، ملوّثاً بكِ، وبحبّكِ، لماذا أرمي نفسي بينَ أحضانِها وأطلبُ منها علاجيَ، لو جئتُك هكذا يا ماريّة هل ستقبلين بي؟؟

***

من المدهش حقاً ما جرى بينَنا، ربما لن يصدقني أحدٌ حتى لو قلتُ الحقيقة، وكنتُ صادقاً، أمثالُكِ قصة لا تصدّق!؟

ماري؛ بأيّ الشتائمِ ستذكرين اسمي لو تبادَلنا الأدوار، لو جئتِ إليَّ مكسورةً خائفةً تطلبين إكمالَ ما بقي من الحياة، فأنظرُ في عينيكِ باشمئزازٍ حتى أُشعرَكِ بالنّقصِ ثمّ أرفض، لأنّك لا تناسبينني أبداً، لأنّك لا شيءَ بالنّسبة لي، كأنّنا لم نفعل أيَّ شيء، ولم يجمعْنا أيُّ مكان، كأنّنا لم ولم ولم، بل وأكادُ أسألك؛ من أنتِ؟ فأنتِ مجرّدُ صديقةٍ عزيزة، وأُهديك إحساساً رائعاً هو أنَّ وجودَكِ مثلُ عدمه، بل عدمُه هو الأفضلُ عِندي، ثم أطلبُ منك ألّا تتظاهري بالحزن والانكسار أمامي فبهذا تقومين بإيذائي بلا أيّ ذنب، لقد تعدّيتِ كلَّ الخطوط الحمراء يا ماري..

أعتذرُ اعتذاراً شديداً لأنّي لم أخنكِ، رغمَ أنّ الخيانةَ وقفَت أمامي بفستانٍ مذهلٍ جدّاً وماكياجٍ كامل، رغم كلِّ السّيدات اللّاتي وقفنَ أمامي ورفضنَ الرّحيل، ورفضتُ وجودَهن حبّاً بكِ، وأندمُ ندماً شديداً على عدمِ ذهابي إلى الحانات والاستمتاعِ بها وبما فيها من أجلكِ، هل فهمتِ كيفَ أنظر إليك الأن؟؟ أظنُّ أنّها أفضل..

دعيني أخبرك شيئاً، أنا لستُ فقيراً، ربما أكون من عائلةٍ عاديّةٍ فعلاً، لكنَّ هذا لا يمنعنا من العيشِ سويّاً عندما نريدُ، كنتُ أتظاهرُ بسوءِ الأحوالِ وأبالغُ أحياناً لأرى ماذا ستفعلين، حينَها لم أكنْ أشعرُ أنَّ هذا صحيحٌ، لكنّني اليومَ أدرك صحَّته تماماً، وحينَ أخبرتُكِ بأنّي أريدُ مقابلةَ عائلتكِ واجهتُ ما لم أكن أفهمُه من أحاديثنا، أو ما لم أكن أريدُ فهمَه حينها، ولا أريد تصديقه...

أتدرينَ يا ماري، حين طلبتُ منكِ أنْ نخرج لتناولِ الغداء، كنتُ أريد الاحتفال معك بأوّلِ أجرٍ أستلِمُه في العمل، لهذا كانَ الأمرُ يهمُّني، لا يروقني فحسب، يا إلهي كم كنتُ غبياً!

من حقّكِ الكامل أن تختاري زوجَك يا ماريّة، لكن ليس من حقّك أبداً ذاك النّكران الكبيرُ الّذي قمتِ به، ليس من حقّكِ أبداً أن تطعميني حبَّكِ لقمةً لقمة، وترفضي تناولَ حبّيَ، وتعتقدين أنّكِ تفعلين ذلك لأجليَ، ثم تعتبرين نفسَك ذاتَ فضل، كيف أحملُ فضلكِ هذا؟ وكيف أشكرُكِ عليه؟ وماذا أفعل به؟

ليست المعضلةُ في رفضي كزوجٍ لكِ يا ماري، المشكلةُ تكمن في تظاهرك بالتّواضع، وسعيَكِ لإقناعي بأنّكِ إنسانةٌ بسيطةٌ تحبّين البساطةَ والعفويّةَ في الحياة، والحقيقةُ أنّكِ تريدين العيشَ في رخاءٍ كاملٍ محضَّرٍ لكِ ولا يهمُّك سواه، لأنّكِ (حسب وصفكِ الدقيق) لستِ معتادةً على التّعب، ولستِ من النّساء اللاتي يشاركن أزواجَهُنَّ في الحياة..

المشكلةُ الأكبرُ يا عزيزتي، أنّنا عندما بدأنا نلتقي ونتحاورُ وندخلُ معاً إلى الأعماق، لم أفكر أبداً بأن نكملَ الحياةَ معاً، كنت أعلمُ بأنّي أقلُّ منكِ بكثير، لم أكن أريدُ النّظرّ إلى الأعلى خوفاً على الرّقبة، لماذا كنتِ تصرّين في بادئ الأمر على تغييري؟ وتحاولين تشجيعي؟ هل ظننتِ أنّني عندما أملكُ شجاعةً أنت سببُها سأهجركِ وأذهبُ لامرأة غيركِ؟ هل يُعقلُ هذا يا ماري؟ أتظنّين أنّني مثلكِ؟

يا ماريّة، العيبُ لم يكن ولن يكونَ فيما تحويه الجيوب، نحن لا يَعيبُنا ما نأكلُه أو نشربه، أو المكانُ الّذي نجلسُ فيه، أفكارُنا لا تغيّرُها الألفُ دولارٍ الّتي نصرفُها في تسوّق الملابس والأحذيةِ أثناءَ كلِّ فصلٍ من فصولِ السّنة، لكنْ يعيبُنا جدّاً ما نربّي قلوبَنا عليه.. يعيبُنا جدّاً الجحودُ بأفعالِنا وكلماتِنا ونحنُ على علمٍ بأنّها حقيقية، يعيبنا أن نمثّلَ دوراً ليس دورَنا والأقنعةُ الّتي نرتديها لسنا أمامَ الكاميرا لنمثّلَ أدوارَها، لستُ أعاتبُك يا حبيبتي، لقد كانَ خطئي، أنا من رميتُ نفسي لصدرٍ ظننتُه يحبُّني، كان خطئي ذلك الوهمَ الّذي صنعتُه بنفسي لنفسي، وتنازلي عن أفكاري، لم أكن أتوقعُك هكذا أبداً، وجلَّ من لا يخطئ...

لستُ أعاتبُك.. لكنّني أفكّرُ في الوقتِ، والطّريقة، أحاولُ ربطَ الأمورِ والمجريات، لماذا اخترتِ ذلك الوقت بالتّحديد؟

لماذا فاجأتِني هكذا؟ وتركتِني أصطدمُ بنفسي؟ كيف يتحدّثُ قلبُكِ عنّي بكلِّ ذاك الجمال، ثم يسمحُ لنفسه ولكِ أن تختارا الوقتَ الأصعبَ لتقوما بالتّغيير، وأنتما على علمٍ كاملٍ بصعوبتِه، كيف أكون عزيزاً عليكما يا أعزائي بعد ذلك؟

أكنتُ ضعيفاً؟ متى كان الضّعفُ في العشقِ عيباً؟ بعض الضّعفِ يزيدُ الشّرفَ شرفاً يا ماري،
ليسَ على العاشق أن يكون قويّاً جبّاراً أمامَ معشوقه، هذا إن حصلَ.. يحصل بجوارِ المعشوقِ ولأجله، إن المفارقةَ كبيرة....

بكيتْ؟ نعم بكيتْ، لكن منذ متى يُعتبَرُ البكاءُ عاراً؟ من يَبكي عليكِ يا ماريّة هو الإنسانُ الّذي يَستحقّكِ، ولن يَبكي عليكِ أحدٌ من بَعدي.. أخافَتكِ دموعي؟؟ لماذا تخافين عليّ هكذا إن لم يكن بيننا ما يجمعنا أبداً؟؟

صدمتي؟ كانت عاديّةً جداً، لأنَّ العلاقاتِ كلُّها تبدأُ وتنتهي، الحياةُ بحدِّ ذاتِها كذلك تبدأُ وتنتهي، وقد علّمَتني الأيّامُ أن أضعَ كلَّ الخياراتِ على قيدِ التّوقع، حتى تُنفى، لكن ما يَصدمُ حقّاً هو الخبرُ الّذي نقلَته ليَ السّيدةُ الصّديقةُ عندما سمعَت باسمكِ مصادفةً، أثناءَ الخبرِ.. عرفتُ أنّني حقّاً لم أعرفْك أبداً، عرفتُ أنّكِ تلك الغريبةُ الّتي ما التقيتُها رغم اللقاء، كيف استطعتِ إخفاءَ قصّة حبٍّ دامت لستّةِ سنواتٍ ماضية،

أثناءَ عملك القديم؟! لا أعرفُ إن كان هذا يُعتبَرُ خداعاً أم لا، لكنّه حتماً سيفٌ يفقأ العيونَ بلا رحمة، ويقطعُ كلَّ حبال الودِّ، ناسفاً الثقةَ والأيّامَ والذّكرياتِ الجميلةَ، لماذا يا ماري، لماذا أخفيتِ ذلك؟ في أي ماءٍ كنتِ تُحاولين الصّيد؟ ولماذا يُخفي أحدُنا قصّةً مثلَ هذه؟ ألم أخبرك بأغلبِ ما حدث معي قبلَكِ، أو على الأقلِّ بأهمِّ أحداثِ حياتي الآنيّةِ والسابقة، الآن أعرفُ بأيِّ غباوةٍ كنتُ أعيش، لكن وقتَها كنتُ أظنُّ نفسي سلطاناً، بكلِّ بساطةٍ إنّه الحبُّ!! والحبُّ غباء..

إن كنتِ تريدينَ النّهايةَ، فالنّهايةُ لكِ يا ماري، لكن بلا تكبّر، بلا تهديد، لم أعرفكِ يا ماري، لم أعرفكِ أبداً، ظننتُ أنّني أعرفُكِ يومَ وضعتِ يدَكِ على كتفي وهمستِ أحبُّكَ وأيضاً جلَّ من لا يُخطئ.

يا ماريّة عندما يفقدُ الإنسانُ قطعةً من قلبِه خطفاً، لا يمكنُ تهديدُه بإنهاءِ حياتِه تماماً، هذا الفقدانُ بالنّسبة للعاشقِ هو الموتُ الأخيرُ تماماً، خاصةً عندما يكونُ في البدايات وعندما يكونُ العشقُ ملاذَ القلب، لا خوفَ بعد فقدانٍ كهذا، ولا فرقَ بينَه وبينَ الموت الختاميّ...

التّهديدُ يعني العداوةَ الكاملةَ، أو الخوفَ القاهرَ في الرّوح، الخوفَ من كشف السّتار عن الحقيقة، اليومَ ألتقي بكلِّ أصدقائِكِ، أسمعُهم أحياناً يتحدّثونَ عنكِ، عن الطّيبةِ والحلاوةِ، يصفونَك بأنَّك فتاةٌ رائعة، فأضحكُ جدّاً، ويصرخُ أنيني؛ يا ليتكم تعلمون..

أودِّعُكِ الآنَ بين الكلمات، وأحتفظُ بظلّكِ الكبيرِ المعلَّق في أجزائي، رغبةً منّي بحضورِكِ الدّائمِ فيها، أراقبُ خطاكِ من بعيد في مخيّلَتي، يحزنُني انشغالُكِ بشيء آخر، ومبرّراتُك المؤلمة، لكنّني لازلتُ وسأبقى أتمنّى أن ترافقَك أمانيك محقّقةً، ولن أخبرَهم عنكِ مهما حدث.

أترُكُكِ الآن هنا بين الأحرف، لتتواجدي في كلِّ صفحةٍ أكتبُها أو أقرؤها أو أحدّقُ بها يا ماريّة، أتركُكِ هنا في هذه الأسطرِ لتزدادَ روعتُها ويكبُرَ ألقُها في احتوائِها لكِ، واحتوائِكِ لها، فأنت وحدَكِ الّتي ستفهمينها لأنّكِ كنتِ في واقعِ التفاصيل...

أيّتها المرأةُ المستريحةُ في أعماقي، سامحيني لأنّي لم أخبرَكِ أنّك تلك الحاضرةُ في كلِّ مكان، ولم أخبركِ بالحبِّ خوفاً من الخُسران، كنتُ أعلمُ أنّني لو أخبرتُكِ سأخسرُك أكثر، سامحيني لم يُسعفني الوقتُ، ولم تكن معيَ الظروفُ، وشاءَت الأقدارُ أنْ نلتقي هكذا...

أتركُكِ الآنَ في الحياةِ لتكوني حرّةً طليقةً في اختياركِ فإن عدتِ إليَّ سيكونُ لكِ كلُّ ما ترغبين به، وإن لم تعودي فلن تخسري حبّاً كنتِ فيه، وُلدَ ليكونَ لكِ وفقط لكِ، فالحبُّ هو الغفران!

يا حبيبتي، الحبُّ ثلثُه اعتيادٌ وثلثُه تعلّقٌ وثلثه شغفُ قلب، وقد ملكتُ الأثلاث الثّلاثة في حضرتكِ، رحيلُكِ أنتجَ "هيروشيما" جديدةً في داخلي يجبُ عليَّ الصمودُ أمامَها لأنّني رجلٌ وفي مجتمعِنا يَعيبُ الرّجالَ انهيارُهم، هذا يَنطبقُ على أفكاركِ، لهذا سأكملُ المشيَ حتّى لو مشيتُ على صفيحٍ من نار، سأدهَسُكِ وأدهسُ كلَّ ما جالَ بيننا، ولهذا أيضاً، سأخرجُ الآن منها -لهيروشيما-، وأترُك خلفي باباً مفتوحاً لكِ تدخلينه مجدداً أو تطرقينه عند احتياجك، لتعلمي أنَّ البعدَ قد زادني حبّاً حتى اختلطَ الحبُّ بالدّماء، فنحنُ نفعلُ ما يليقُ بنا وبقلوبِنا وبأسمائِنا، ويبقى الحبُّ تفانياً وإخلاصاً..

الوداع؛ بعدما كنتُ أحاولُ طهيَ نفسي لك، بعدما كنت أسعى كي أسكنَك في بيتي، بعدما أصبحتِ كلَّ ما ملكتُ وملكَ قلبي، الوداع؛ في صبحٍ ليسَ صبحَكِ بعدما كنتِ كلَّ صباح، الوداع؛ لأنّي لا أملكُ الكثيرَ من النّقود، الوداع؛ يا حبيبتي الّتي تمنيت، الوداع؛ فأنا بعدَ قليلٍ تحتَ ترابٍ سيرتوي لو وقفتِ عليه بقدميكِ النّحيلتين القصيرتين الجميلتين، الوداع؛ يا من كنتُ أخافُ عليكِ من قوّتي فكنتُ في عينيك وأمامَها ضعيفاً، وكان ضعفي أحدَ أسبابِ استغنائكِ عني...

الوداع؛ لأنّي الصّغيرُ الّذي أحبَّ حبّاً كبيراً، لأنّي لستُ صاحبَ حياةٍ مخمليّةٍ، لأنّي أحتاجُ يداً تصفّقُ مع يدي لتكملَ المسيرَ، لأنّي سأحتَضَرُ كثيراً ولن تفعلي شيئاً سوى الفُرجة، الوداع يا ماريّة، فمن وضعَك في قلبي، يستطيعُ استئصالكِ منه، بل واستئصالَ القلبِ كلَّه بلا أذيّة..

أكتبُ إليك رسالتي الأخيرة، وأترُك لك أرضَ المدينةَ وأمضي، تاركاً خلفي جيشاً يصلُ الأرضَ بالسّماء هو جيشُ دعاء، وغداً يأتيني بالخبر، لا أظنُّ أن يسامحَك دمعي، وقد فشلتُ في إقناعِ قلبي على العفو فقد أسكتَني لمجرّدِ قولِه أنَّ العفو عند المقدرة فقط، واستمرَّ بشتمِ الحبِّ والغفرانِ والإخلاص، لكنّني سأحاولُ حتى هلاك أحدِنا...

لم أكن أتوقع أن أكتبَ إليك هذا بعدَ أن صببتِ العشقَ عليَّ كما يصبُّ اللهُ البرد في كوانين ولكن أكتبُه وأفتحُ قلبي لكلِّ السّائلين والمشكّكين ليعرفوا ما فعلَتهُ يداكِ ويدركوا الحقيقةَ كاملةً، ليس تشهيراً بك فلسنا نحنُ الّذين ننسى الخبزَ، إنّما هي رصاصةٌ أطلقُها دفاعاً عن النَّفس، وعلى الحقيقةِ أن تُقالَ واضحةً لتكونَ درساً لنا وللقادمين والقادمات.

إنّني أتركُ لكِ الأموالَ لعلَّها تشتري لكِ حبّاً وسعادةً وأضحكَ كما يضحكُ الآن كلُّ قارئٍ لجملةٍ كهذه، وأتركُ لك النّكرانَ، فقلبُكِ يعرفُ الحقيقةَ مهما كانَ حديث الّلسان، وهذا يكفي، قد سمعَ الله صوتَ أمّيَ الصّامتَ ونظرَ في قلبِ أبي فأيقظَني في ليلةٍ خميسيّة على صوتِ الغيثِ ليقولَ لي؛ ها هي السّماءُ تبكي لأجلكَ أيُّها الفتى، فكيفَ تدمعُ عيني بعد هذا وأنا الخاسرُ الّذي جعلَ اللهُ خسارَتي نصراً؟ لا دمع بعدَ الآن يا ماري....

أتركُكِ الآن بينَ الكلماتِ، وأترُك لكِ في السّطرِ الأخيرِ اسمَ رجلٍ لن ينساهُ صدرُك حتى لو أصابَك الزهايمَرُ الكبير، سيدقُّ قلبُك كلّما مرَّ به خوفاً، والجميع يدري ما معنى أن يدقَّ قلبُك خوفاً، فاذهبي حيثُ تشائين، اركبي الغيومَ، غادري الأكوانَ، إن نسيتِ ونسينا فإنَّ اللهَ عزَّ و جلَّ لا ينسى.

تلكَ هي معاركُ الحبِّ، المخدوعُ ينصرُه الرَّبُّ والخادِعُ تقومُ القيامةُ فيه مرّتين، وعن أيِّ حبٍّ أتحدَّث، نحنُ لا شيءَ بيننا، سامحيني لم أعتد على الفكرة بعد، وأعتذرُ أيضاً لأنّني اشتقتُ لك، أعتذرُ لأنّني ظننتُ أنّك تحبينني، أعتذرُ لأنّني حاولتُ إسعادَك، أعتذرُ لأنّني كنتُ أشعرُ بالحزن حين لا أراك..

أعتذرُ لأنّني انتظرتُ أن أكونَ بجانبك، أعتذرُ لأنّني انتظرتُ أن تكوني بجانبي، أعتذرُ لأنّي أحببتُك، وأعتذرُ لأنّي أزعجتُك برسائلي واتّصالاتي، أعتذرُ لأنَّ اسمي سيبقى تهديداً لكِ، أعتذرُ لكلِّ أصدقائي الّذين خسرتُهم بسببِكِ، ويبقى اعتذاريَ الكبيرُ لقلبي، فلتقبل يا قلبي اعتذاري ولتكتفي بحبّكَ لنفسكَ منذ الآن، فأنت الوردةُ الّتي ستزهر داخل ميّار.

(٧)

جئتك من تأوّدِ قلبي، أسألُك أين يباعُ الصّبرُ، وأستفسرُ عن عملِ معامِلِ الأدويةِ لديكم، هل استطاعوا إيجادَ علاجِ الشوق، أم أنّهم لازالوا على قيدِ الباراسيتامول يبتسمون.

ميّار

نعم كنت غامضاً جدّاً لكنّني وفي لحظةٍ ما لم أكن أستطيعُ كتمانَ هيجانِ مشاعري، كان لابدَّ من ضربِ كلِّ الجدرانِ من حولي وتحطيمها، في الواقعِ كسرت يدي...

كان لابدَّ من المشي تحتَ غيثِ السّماءِ، لعلَّ البوحَ هناك حيثُ الغيثُ ورائحةُ التّراب في ثوانيه يريحُ الفؤاد، في الواقع بللتُ نفسي وملابسي وأصابَني البردُ المتغلغِلُ في الضلوع...

يا ويحَ البردِ حين يكونُ في القلوب، وما بينَ الرّجولةِ والطّفولة طُعنتُ من حيثُ أدري.. وعبرَ الطّعناتِ مررتُ وحدي، وباختياري أن أكونَ وحيداً.. أحملُ الكثيرَ من الجنون والكثيرَ من الطّيشِ والمراهقة.. مستبدلاً أطنانَ اللّوم المحيطِ بي..

أنا الصّامتُ الّذي لم يُعبّر في لحظاتِ التّعبير، وما لزوم التّعبيرِ في غير ميعاده، أنا الصّامتُ الّذي إذا تحدَّث صمتَ أو ضحكَ الجميع، أنا الإنسانُ الّذي لم يكن الحزنُ حزنَه ولا الألمُ ألمَه لكنّه كانَ صديقاً وفيّاً للعتَمات واللّيل..

كنتُ متورّطاً بأشياءَ كثيرةٍ، علاقاتٍ كثيرةٍ.. حماقاتٍ كثيرةٍ.. وأفكارَ كثيرةٍ، لم أكن أعلمُ أنَّ هناك أفكارٌ يكونُ التّفكيرُ فيها بمثابةِ التورُّطِ بجريمةٍ في حقِّ الشّرف، وأكملُ الضّيااع...

كنت وحيداً جداً.. وحيداً حدَّ الانهيارِ والموت، وبين أوراقي كتبتُ؛ يبدو أنّني سأبقى كذلك، فحتى عندما تكونُ الوحدةُ اختياراً تكونُ مؤلمةً جدّاً، كنتُ أبحثُ كثيراً عن الأصدقاء.. لم أكفّ عن البحثِ يوماً ولكنّني لم أجد ما يروي بحثيَ المتعطّش...

وربّما سأبقى أنادي الجاثين هناك.. أنقذوني.. بصوتيَ الّذي لا صوت له.. ودمعيَ المتمدّدُ في مجاريه.. وحاجتي الصّاخبةُ لشيء ما لا أعلمُ ما هو.. أو ربّما لا أريدُ البوحَ به، أو لا يريدُ البوحَ بي، ثم أتمدّدُ في حجرتي وحدي.. أنزفُ اشتياقاً.. أنزفُ رغبةً.. ثم لهفةً.. ثم أنزفُ جسداً، وفي جسدي المشلولِ قصّةٌ لا تُحكى.. لم أفقد منه عضواً أو إحساساً ولم أفقد فيه قدرةً.. لكن ثمّةَ أجسادٌ تبكي بلا آهاتٍ.. تبدو حركاتُها هكذا، ثقيلةً وبائسة وشاحبة.. أجسادٌ تخلّى عنها الحبُّ.. وتركَها الوصلُ لتغدو جثثاً متحرّكة.

لكن ثمَّةَ أرواحٌ تحتاجُ ضغطاً أوكسيجينياً عالياً يفوقُ حجمَ الفقدان الّذي كابدتُه أو يساويه على الأقل، لتبقى على قيد الصّراع..

ثمّةَ أيدي أصبحَت ترتعشُ من الفقدان كما ترتعشُ أثناءُ البرد.. في الأمسِ والغدِ، ثمّةَ شفاهٌ جفّت على مرور الأزمان، وراحَ لونُها وسُكّرها فذَبُلت..

لم أكن أعرف أنني خُلقت لأحيي ذكرى الرّجال المتألمينَ من الهوى.. أمثالَ قيس، لكنّها أصبحتْ الأن، إحدى أجزاءِ حقيقتي.. أصبحتُ أشعرُ بها وأعيشُ معها، ولم أكن أعرفُ أيضاً أنّ تفاصيلَ وجهي سوفُ تفضحُ إرهاقي.. وعيوني سوفُ تفضَحُ نقصي.

كأنّني كنتُ أشعرُ أنَّ تفاصيلَ عُمري كلَّها ستمرُّ بجوارِ ثدييها.. ممّا جعلني مُلفتاً بهدوئي الجبار، وما أوصلني إلى قمّة غلياني هو شيءٌ جديدٌ وقفتُ على حافّته أنظرُ إليه بفضولِ طفلٍ يمشي خطواتِه الأولى بثقلٍ.. لقد كانَ إحساساً خارقاً حقاً، كانت تخطفُ النّظرَ إليَّ لتأكلَني والنّارُ تأكلُها..

وتحرقُني والنّارُ في داخلي موقَدةٌ، أمّا عيوني.. كانت في حلمٍ لا تعلمُ أنّها ستفيقُ منه مبعثرةً مقتولةً بلا نظر.. وبعدَ استنفاذِ كلِّ لغتها، وكلِّ وقاحتِها، وكلامِها، لم تشبع منها، من عيونِها، ومن أثدائِها الخجولةِ المُختبئِ وجهُها..

ثم شردتُ لأقولَ لها صمتاً، ادخلي معي في التّجربة..

المسي صدري.. لعلّه يعودُ صدراً..

واستفزّي وحدتي.. أملاً بأن تستفيقَ من الغيبوبةِ كرامتُها وتمضي..

فالكثيرُ من الكلامِ يعيشُ على شفاهي..

لكنّني أخشى عليكِ من الكلام..

وأريدُ العيشَ مرةً واحدةً بسلام..

أريدُ أنْ أقولَ لكِ الحقيقة..

وأخاف أنْ أبصقَ قلبيَ من فمي فجأةً..

فيُرعبكِ سوادُه.

هذه كانت مقدّمةً خياليّةً.. أو مقدّمةً من الأحلام.. لكوني الآن محترقاً أو حريقاً ضخماً لا يجرؤُ أحدٌ على الاقترابِ منه أو محاولةِ إخمادِه، ولا حتى هو يقبلُ بفكرةِ الإخماد..

نحنُ لا نعرفُ ما شعورُ النّارِ عندما تُخمَد، هل فكّرت يوماً ما أنَّ للنّار شعوراً؟ لا أظنُّ..، ولكن لو وُجد هذا الشّعورُ (فرضاً)، فهو يشبه إلى نحوٍ بعيدٍ، شعورَ الإنسان عندما يفقدُ بعضاً من أجزائه.

وبين أوراقي أكملت الكتابة؛ يبدو أنّني أملكُ طباعاً معقّدة أيضاً وليسَت مألوفةً، جعلَتني أبقى لوحدي عمراً كاملاً ولا أملكُ أملاً بألّا أعودَ إليها.. ففي الحقيقةِ أحبُّها جدّاً وغالباً ما تكلّفُني أثماناً باهظةً..

أصبحتُ أعرفُ اليومَ ألّا أحدَ يستطيعُ فهمَها بالكامل أو توقّعَها أو كشفَها ومعرفةَ معناها، هذا يشبه تماماً فكرةَ أنَّ عاداتِنا السَّيئة هي تفاصيلُنا الحزينةُ ولكن بشكلٍ أخر..

وأنَّ، هناك جزءٌ في حياتي الشَّخصيّة، لا يمكنُ أن أتخلّى عنه.. فقد امتدّت جذورُه إلى أعماقي هو العُزلةُ والانطواءُ والابتعاد، هكذا كنتُ أحدِّثُ نفسي طوالَ السّنين الّتي مرّت بعدَ بلسم وقبلَ ماريّة، وهذا الجزءُ كان لي بمثابةِ النّعيم.. أو الجنّة الّتي يتحدّثون عنها أنّها تقعُ بجوار النّار، هناك كنتُ منغمساً بين أقلامي وأفكاري وما يجولُ في خيالاتي بعيداً ومُبتعداً عن واقعِ حياتي، مُتَّهَماً دائماً بالهروب!

لا أحدَ يعلمُ كم كنتُ أغذّي الأملَ من روحي..، وكم أخبرتُه بأنّي سأعودُ يوماً ما إلى سابق عَهدي، وكم كان اليأسُ يأكلُ من نفسي، من قدراتي، من أيّامي، من جهدي، وحتى من موهبتي...

كلُّ يومٍ عاديٍّ لديَّ كانَ يحتاجُ لصهيلِ مئاتِ الأحصنة حتى يَمضيَ، ورغم هدوئي الواقفِ على أعتابِ البرودِ، لم تكن الأيّامُ في مُعظمها تمضي بهدوء.

اليومَ لي رونَقي.. لي شخصيّتي.. لي طباعي الّتي أصبحتُ معروفاً بها وأصبحَت معروفةً عني، لي كلماتي المميّزةُ الّتي أُذكَر بها..، وتحفظُها كلُّ القلوب والأفواه والضحكات، لي عالمي الواسعُ الّذي عادَ مجدّداً لكن بحمايةٍ أمنيّةٍ مشدّدةٍ جدّاً منعاً من تجاوزِ المتطفّلين أسوارَه مرّةً أخرى..

اليومَ أظنُّ أنّني أملكُ وقتاً طويلاً لأقومَ بأشياءَ كثيرةً، كأن أكتبَ رسالةً تشبه رسالةَ الغفران، أُقنعُ من خلالها روحي ألّا تنامَ على قارعةِ الطريق، أو أكونَ رئيسَ اجتماعٍ سريٍّ و وديٍّ يجمعُ بين قلبي وعقلي في مسافةِ العنقِ على طاولة الحوار، وأصافحَ بيَدي اليمنى يديَ اليسرى، أليست المصالحةُ مع النّفسِ من أرقى صورِ الإنسان حتى ولو كنا في إحدى غُرَفِ التّحقيق؟!

اليومَ أملكُ الكثيرَ من العمر، لأعيشَ في شغفِ جنونيٍّ أكثر، وأبقى بين ثنايا انفصامي، أي أنْ أرتديَ بدلتي الرّسميةَ وأدخلَ إلى التّحقيق، وفي غرفة التّحقيق أتجوّلُ في قفصي الصّدري.. أطمئنُّ على القطعِ المشاركةِ في حربِ الحياة، ثمَّ أجلسُ ألعبُ على الخريطةِ، أُبعثرُها وأثنيها ليختلطَ الشَّمالُ بالجنوب.. ويتَّحدَ العالم، تقعُ الخريطةُ فجأةً عندما أفكّرُ ماذا سأقولُ في التّحقيق..

ألملمُ خيالاتي، أطبطبُ على الأحلام أيضاً، ثمّ أسيرُ في منتصفِ الغرفةِ تماماً أتحادَثُ أنا والدُّخان؛ يخبرُني كيفَ وُلِدَ من النّار، وأخبرُه كيفَ أجهضَني الحبُّ قبلَ الولادةِ بلحظات، يخبرُني كيف يحاربُ الهواءَ من أجلِ البقاء، وأخبرُه كيفَ غيّرَتني الأقدارُ حتى صارَ البقاءُ آخرَ أولويّاتي.. كيفَ أصبحتُ أبحثُ عن شيءٍ يطهّرُني من مأساتي فقط.. شيءٌ يُنسيني ثمّ يَنساني وأنساه.. كيفَ قرأتُ في الفلسفةِ محاولاً تعلُّمَ طهيِ القلوب، لأطهوَ قلبي جيّداً حتى يَنسى الإفراطَ في إحساسِه ورقّتِه، يندثرُ الدُّخان في الهواء، ويسألُني الهواءُ ماذا سأقولُ في التّحقيق..

أقومُ إلى اللّيلِ.. ويقومُ اللّيلُ بي، يتدلّى حلُمي منّي.. وأتدلّى أنا من حلُمي، يتسلَّقُ الأملُ ساقي حتى عُنقِ الفخذ، فأجلسُ بثباتٍ، أكتبُ اسمي على ورقة، وتحتَه السّؤالُ، تُنصتُ الأشياءُ انتظاراً، فأضحك، ترتجفُ يدايَ فجأةً ويسقطُ القلمُ بصرخةِ كبريائي "ماذا سأقول في التحقيق"..

أفكّرُ أن أكونَ في هذا العالم، كشظايا بلّورٍ مكسور، كحبٍّ خالدٍ في الأعماق، ككأسٍ صانت نفسَها وفاءً حتى تغبَّرت...، كروحٍ غادرت ولم تغادر، كقلبٍ يابسٍ بجوارِ قطعةِ خبزٍ بقيتُ في مجرى الهواءِ طويلاً، ككتابٍ ظنَّ نفسَه صديقاً، كشيءٍ تافهٍ يعيشُ في قصرِ الأمير..

كهذه الطّاولةِ المركونةِ منذُ عشراتِ السّنين في غرفة التّحقيق، وعلى ذكرِ التّحقيق.. ماذا سأقولُ في التّحقيق..

أتمدّدُ مجدّداً على الأرض، ينظرُ إليَّ السّقفُ مبتسماً.. يدغدغُني بنظراتِه، فأضحكُ، أمرُّ على بعضِ الذّكريات.. يقولُ الكرسيُّ الفارغُ (حتى الآن): لقد مرَّ وقتٌ طويل حقاً وتغيّرَت حياتُنا بالفعل. فأضحك، أنقلِبُ من أيمني إلى أيسري.. يصرخُ بيَ الضَّوءُ (اليتيم هناك): لا تضغط على قلبِك هكذا.. فأضحكُ، وأضحك، وأضحك حتى يسألَني السّؤالُ "ماذا سأقول في التحقيق "..

جاؤوا بكرسيٍّ ثانٍ.. أجلسوني عليه، أغلَقوا لي عينيَّ، أصبحتُ أسمعُ الأصواتَ فقط، صوتُ خطواتٍ، دخلَ أحدُهم، وضعَ شيئاً ما على الطّاولة.. غابَ الصّوتُ للحظاتٍ....

في هذه اللّحظاتِ بدأتُ أحدّثُ نفسي قائلاً: فليصفوني بالمجنون أو المعتوه، أو فليعتبروني كبيتٍ في حارةٍ عتيقةٍ يسكنُه الجنُّ، وليحكوا قصتي للأولادِ والأحفاد.. للقمرِ للشجرِ للغصون، وليخبروا الخريفَ أنّني أحدُ أشباهِه الأربعين الّذينَ عاشوا ها هنا، فليجدوا الوصفَ الّذي يناسبُهم لأكونَ حرّاً فيما سأقولُه في التّحقيق، وليحضّروا لي جنازَتي لأجلِ ما سأقولُه في التّحقيق...

وليكن هذا التّحقيقُ هو آخرَ ياسمينةٍ أقطفُها من الأيّام، يقاطعُني صوتٌ أنثويٌّ يريحُ النَّفسَ يقولُ بهدوءٍ: "أغلقوا الباب" ... يُغلق البابُ فعلاً، يعودُ الصّمتُ للحضورِ في حضرةِ السّؤال "ماذا سأقول في التحقيق"..

قال الصوتُ: ستسمع صوتاً أنثوياً فتَّاناً ولكنه صوت المحقق؛ ثم سألني: من أنتْ؟. وبدأ التحقيق..

أنا المتّهمُ بالتّحرّرِ وبالحرّية، صاحبُ جريمةٍ لم تُرتكَب بعدُ، ولا أعرفُ عنها التّفاصيلَ، لكنّهم نشروها في الجرائدِ والصّحفِ ووسائلِ الإعلام بكافّة أنواعِها.. أصبحَ الجميعُ يتحدَّثُ عنها ولم يخبرني أحدٌ بها أو حتى يسألْني عن تفاصيلها..

أنا الحديثُ الأثرُ.. العشق الوفيُّ لنهدِ امرأةٍ لم تُخلق.. مسحةٌ من غبارٍ تعيشُ على سطحِ الأثاثِ في بيتٍ مهجور..

من أنا؟؟ أنا ابن شعارٍ كاذبٍ ووعدٍ وهميٍّ، أنا المسافرُ بين دويلاتِ الأمل.. من أملٍ إلى آخر، الكتابُ الّذي أرادوا له البقاءَ في خزانةِ الأعرافِ فرَفضَ ثم رُفض، أنا الجاني والمجنيُّ عليه، الفاعلُ والمفعولُ به، القاتلُ المقتولُ، الجارحُ المجروح، النّاقدُ المنقودُ، الكاتبُ المكتوب.. والقارئُ المقروء، والكثيرُ الكثيرُ من هذا وذاك..

من أنا؟؟ أنا الاحشاءُ المحشوّةُ بالخمر المعتَّق.. والعقلُ الواعي الحكيمُ في جسدِ مراهقٍ بائس، فليختر التّحقيقُ ما يشاءُ منّي.. فإنّي أكونُ كما يريدني التّحقيق.

- من كان معك إذاً؟.

كنتُ وحدي ولم أكن، كنتُ أنا واسمي والنّجماتُ مستلقيةٌ فوقَ أجفاني..، وشفاهُ كأسي مضجعُ الكلماتِ الّتي لا تنامُ، مخيّلتي أحلامي أوهامي انفصامي والآهات الذّكريات، طيفُ وجنةٍ أحببتُها.. طيفُ وجنةٍ أحبّتني، والجنونُ الرفيق..

من كان معي؟؟ أفكاري الّتي حاربتُ لأجلِها طويلاً، موتيَ الّذي اشتهيتُه على أكتافِ حبيباتي.. احتضاريَ الطّويلُ.. وسؤالُ اللّيلِ عنّي يا أيّها الغريبُ ما بك لماذا تُحتَضر؟

من كان معي؟؟ موسيقى الوداعِ الحزينةُ، عقدُ ملكيّتي.. الهديّةُ قبلَ الرّحيل، جسدي كمكانٍ وحيدٍ تسكنُ فيه الرّوح، الكذبُ والطّمعُ والخُدعُ الجميلةُ، الكأسُ والأزمانُ وأدواتُ الجريمة، اللّيل الشّاهدُ والشّمعةُ الشّهيدة، فليختر التّحقيقُ ما يشاءُ منهم.. إنّهم يكونون كما يريدُهم التّحقيق.

- ما هي أداة الجريمة الّتي حضّرتَها؟.

لم أقم بتحضيرِ أداةٍ للجريمة، أداةُ جريمتي يا سيّدي المحقّقُ كانت دائماً جاهزة.

- كيف ذلك؟.

ذلك لأنَّ أداة جريمتي كانت أبسطَ ممّا تتخيّل، لكنّها تكونُ أحياناً كسيفٍ حادٍّ يستطيعُ فصلَ الرّقبة بضربةٍ واحدة، وأحياناً تشبهُ الرّصاصَ المتفجّرَ وحتى القنابل، هي السّلاحُ الفتّاكُ الّذي لا يعاقِبُ عليه القانون.. لا يدركُه أحدٌ ولا يستطيعُ الإمساكَ به فيبقى بلا أيّ بصمات، لكن ما من أحدٍ يستطيعُ الوقوفَ أمامَه، أداةُ جريمتي كانت الحقيقة، الحقيقةُ فقط ولا شيء غيرُ الحقيقة، بلا أيّ تلاعبٍ أو كذبٍ أو خداع.

- من كان هدفُك حينها؟.

الجميعُ، بدايةً بالأبعد وانتهاءً بالذّات.. كنصفِ قطرِ الدّائرة الواصلِ محيطُها بمركزِها مدمّراً كلَّ ما يمرُّ فيه، يتبعُه نصفُ قطرٍ شقيقٌ يصلُ مركزَها بجانبها الآخر، مدمّراً كلَّ ما يمرُّ عليه أيضاً..

الجميعُ، الباحثونَ عن الأمل، الصّامتون أمامَ امرأةٍ جميلة، المتقاعسون وهم في جوارِ الشّغف، كلُّ الأصدقاء الّذين رحلوا، كلُّ الأوفياء الّذين ندموا، كلُّ الآباء والأمّهاتِ المرهقات، كلُّ المدلَّلين والمدلَّلات.. فالحياةُ ليست لهم...، وكلُّ من أرادَ اغتيالي وفشل،

ولم يكن هدفي يقتصرُ على الأشخاصِ، بل كنتُ أريدُ الوصولَ أيضاً.. إلى حظِّ الجميلات، ليلِ الغرباء، لحظةِ الوداع، ليلةِ الفراغ، دمعةِ الحنين، نوبةِ الاشتياق، وكلُّ الأشياءِ الّتي أصبحَت مألوفةً ولم يعد لوجودِها معنىً، ولو استطعتُ لتجاوزتُ كلَّ ما قلتُه الآن في هدفي.. فليختر التحقيق ما يشاءُ من الأهداف.. هدفي يكونُ كما يريدُه التّحقيق.

- ثم ماذا فعلت؟.

وضعتُ رأسي على شيءٍ يشبه الوسادةَ أو يلعبُ دورَها، غفوتُ غفوةَ التّائه على رصيفٍ غريب، نمتُ كأنّني لم أعرف النّومَ منذُ سنوات، نمتُ وأنا أعرفُ ألّا أحدَ في انتظاري ولا أحدَ في انكساري، حلمتُ بطفلٍ يعيشُ على أبسطِ مقوّمات الحياة ويضحك، يأكلُ قوتاً يوميّاً لا يزيدُ ولا ينقصُ ويضحك.. ولا تهمُّه المقبّلات، يسلّي نفسَه بنفسه لساعاتٍ طويلةٍ هرباً من الوحدةِ ويضحك..

يلعبُ حتى الملل ثمَّ يرتبُّ ألعابَه ويعيدُها إلى مكانِها ويضحك.. يُديرُ الأحاديثَ الخاصّةَ بينه وبينَ نفسِه ويضحك، يطمئنُّ على الجميع بطريقةٍ خاصّةٍ ويضحك، يتفقّدُهم دائماً بطريقةٍ ما.. ربّما يفتحُ البابَ فجأةً أو ينظرُ ولو من بعيد ويضحك، ثم يديرُ عينيه إلى الجهةِ المقابلةِ فتَرى فيها نظرةَ رجلٍ يحملُ عبئَ الحياةِ ويَعرفُ ما يريدُه بدقّةٍ متناهيةٍ ويضحك، يحبُّ البقاءَ منعزلاً أثناءَ تفاصيله اليوميّة.. رفضاً لأيِّ شيءٍ يشتّتُ التّركيز ويضحك، يُنهي ترتيباتِ يومِه ويذهبُ وحدَه إلى الفراش الصّغيرِ ويغنّي أغنياتِ النّوم.. وينامُ ضاحكاً، كأنّما الدّنيا عادَت إلى مجراها.. عادت يا سيّدي لكن لا أعرفُ كيف ولماذا ومتى ولِمَن..

ظلَّ ذاك الطّفلُ يكبرُ ويكبرُ أمامي حتى أصبحَ شابّاً، يعيشُ في رقعةٍ جميلةٍ من التّراب ويقتاتُ منها وتقتاتُ منه، أصبحَت ألعابُه بحجمِ أحلامه، ظلَّ يعيشُ كلَّ طقوسِه اليوميّةَ.. لكنَّ قلبَه قد شاخ، وفجأةً استدار إليَّ قائلاً: " الأرضُ هي الرّوح"، ثمّ مشى إليَّ، عَبَرَ جسدي، واختفى الأثر..

ما إنْ غابَ عنّي الأثرُ.. حتى ظهرَت بلسمُ قادمةً من الأفق، صامتةً هادئةً كعادتِها، تقتربُ إليَّ شيئاً فشيئاً.. كدتُ لا أصدّقُ ما أرى، أين وجهُها.. وابتسامَتُها السّاحرة، عينُها الغجريّةُ المجرمةُ ونهدُها الصّارخُ، وبريقُ أنوثتِها، هذه ليست بلسم.. هذا شبحُ بلسم.. أو ما بقيَ منها، ليسَ طيفَها حتى، وقفتُ ساكناً بلا حراك،
استمرَّ اقترابُها حتى كادت تلمسُني وقالت: " حبيبي، الحبُّ هو الروح "، ثمّ مشَت إليَّ، عَبَرَت جسدي، واختفى الأثر..

ما إنْ غابَ عنّي الأثرُ.. حتى ظهرَ ظلُّ فتاةٍ ناعمةٍ خفيفةٍ على أيمَني، فالتفتُّ نحوَ أيسري.. في الوهلةِ الأولى لم أعرفها.. لكن سرعان ما اكتشفتُ أنّها ماريّة، لازالت تنظرُ بشراسةٍ متظاهرةً باللّا مبالاة..

تحاولُ لفتَ الأنظارِ كعادتِها، اقتربَت منّي قائلةً: " المال هو الروح"، ثم مشتْ إليَّ، عَبَرَت جسدي، واختفى الأثر..

ما إنْ غاب عنّي أثرُها.. حتى شعرتُ بيدٍ حطَّت على كتفي، لم أستدر وفي الحقيقةِ لم أجرؤ على الاستدارة، وبينما كنتُ أحاولُ استرداد شجاعتي..

يدٌ أخرى طبطبَت على كتفي الآخر، شعرتُ بقلبي يتحرَّكُ ظننتُه يريدُ التّسلّلَ والهرب.. لكنّه استدارَ ثمّ ابتسمَ، أمامَ دهشتي..

وجاء الصّوت إعلاناً للحياةِ يقول:
بُنَيَّ؛ لماذا لم تتأكد من إغلاق الأبوابِ والشّبابيك، ولم تترُك أثارَ الضوءِ ليلاً دليلاً لوجودِك؟ لماذا لم تأكل طعامَك مبكّراً ليزدادَ نشاطُ عملِك، وتبقى وسيماً جذّاباً كما عرفتُك؟ لماذا فقدتَ شهيَّتَك المعتادةَ الّتي أتعبَتني؟ لماذا لم تعد تضحك؟ أين روحُك الّتي عوَّدتَنا عليها؟

بُنَيَّ.. أين كوميدياك، لماذا أصبح قلبُك هزيلاً؟ اسودَّت أجفانُك، وتوقّفتَ عن الحياة.. ألم أوصيكَ أن تعتني بنفسك جيداً!؟

كيفَ تغيَّرَت ملامحُك.. ووجهُك.. وجسدُك الممتلئ؟ أيّ عينٍ هذه الّتي أصابَتك؟ أيُّ ريحٍ عصفتْ بك؟ مَن ذهب بك إلى غسقِ اللّيل بُنَيّ.. ونسيَك هناك حتى غسقَت العيونُ وذبُلت الوجنات؟ لماذا بلّلتَ نفسَك بالماء ثمّ خرجتَ إلى الهواء يلفحُك فيُمرضك؟ ألم أوصيكَ أن تعتني بنفسِك جيّداً!؟

خذ رحِمي بُنَيَّ لعلَّه يُعيدُ تكوينَك مرّةً أخرى.. وتولدُ مجدّداً كأنّك ما أحببتَ يوماً، خذ رحمي لازالت رائحتُك فيه.. ولازالَ قادراً على العطاء، خذ رحِمي فماذا أفعلُ فيه إن لم تكن بخير؟.

غابَ الصّوتُ تدريجيّاً، صمتَ المكانُ من حولي.. وكأنَّ الحياةَ وقفَت.. اهتزَّ كتفي الآخرُ، وبينما أنا متسمّرٌ في مكاني بلا حَراك.. عادت الحياةُ بصوت آخرَ يقول:
كن شجاعاً، كن قويّاً، فحين رميتُ بكَ إلى الحياة أردتُ أن أصنعَ منك رجلاً.. لم أكن أعرفُ أنّها ستكونُ قاسيةً عليك إلى هذا الحدِّ، لكنّني كنتُ واثقاً من أنّك ستمرُّ رغم كلِّ أوجاعِك وجراحِك الّتي لم نعرفها وربما لن نعرفها أبداً..

كنتُ أراقبُك عن بعد، لم أتدخّل لأترك لك مساحَتك الشّخصيّةَ، فالحريّةُ والوطنُ هما أسمى ما يملكُ الإنسان، وقسوةُ الأيّامِ تكفي لتتعلّمَ منها..

ليست القوّةُ في ألّا تقع، إنّما القوّةُ في استطاعتك على الوقوفِ بعدَ كلِّ مرّةٍ تقعُ فيها.. في قدرَتك على التّحمّلِ والصّبرِ.. في رؤيتك الحكيمةِ وعقلكَ المتَّزنُ..

وفي اختيارك للوقتِ المناسب لكلِّ شيءٍ، كن شجاعاً، كن قوياً، في هذه الحياة الجميعُ يستطيعُ العيشَ بطريقةٍ أو بأخرى.. لكنَّ الفوارقَ كبيرةٌ بين البشر.

غابَ الصّوتُ الآخرُ أيضاً، ومشيا أمامي، أبي ثمّ أمي، وقفتُ أراقبُ خطواتِهما وهي تبتعدُ حتّى عبرا الأفقَ واختفى الأثر.

- ما بكَ ميّار لماذا سكتَّ؟.

تذكّرتُ تلك اللّحظةَ الّتي كنتُ أراهُما فيها، حينَ يذهبُ أبواك أمامَك.. تشعرُ وكأنَّ البشرَ جميعَهم قد ذهبوا، أي أنّك لم تعد تملكُ سنداً تتّكئُ عليه... لحظةٌ مؤلمة جدّاً.

- صحيح، ثمّ ماذا جرى بعدَ ذهابِهما؟.

كثُرَت الجموعُ من حولي، بدأ النّاسُ يأتون من كلِّ حدبٍ وصوب، الأصدقاءُ.. الأقرباء.. الأهلُ.. المعارف، كلٌّ من قابلتُه يوماً ولو بمحضِ الصّدفة فقط....

كلُّ من قالَ لي مرحباً أو قلتُها له، كلُّ من كانَ له صفةٌ عندي أو كان لي صفةٌ عنده، كنتُ أعرفُهم جميعَهم.. لكنّني شعرتُ وكأنّي أراهم للمرّةِ الأولى، بدأتُ أمشي بينَهم أستمعُ لبعض ما يقولونَه أو يتكلّمون عنه.. ويا ليتني قطعتُ أذنيَّ، أو كنتُ أعمى، أو نرجسيّاً بما يكفي لأغضَّ البصرَ عنهم وهم عُراةٌ هكذا.

- كانوا عراة!!؟.

نعم، عُراة، العُريَّ لم يكن في الأجساد.. كان العُري في العقولِ.. في الأفئدة، رأيتُهم هكذا.. أفكارُهم مرئيّةٌ.. حقيقتُهم واضحةٌ.. نواياهم ظاهرةٌ.. ألسنتُهم وأفعالُهم وتفاعلُهم وكلُّ ما بدا من الخارج كانَ مختلفاً تماماً عمّا كانَ في الدّاخل، أحياناً تكونُ معرفةَ الحقيقة كالخطيئة الّتي ترتكبُها وأنت على علمٍ بأنّها لن تغتفَر.

- ماذا حصل بعد ذلك؟.

حينما كنتُ أتجوّلُ بينهم، شعرتُ بصداعٍ مؤلمٍ جداً وصدى أصواتِهم يتردّدُ في أذنيَّ، حتى أمسكتُ رأسي وبدأتُ أبحثُ عن مكانٍ أجلسُ فيه، أتعبَني البحثُ ولم أجد فوقفتُ متسمّراً في مكاني..

رحتُ أحاولُ إيقافَ الألمِ دونَ جدوى، جرّبتُ النّظرَ إليهم لعلّي أجدُ أبي أو أمي أو أيَّ أحد أرمي عليه نفسي، حتى وقعَت عيناي على فتاةٍ رائعةٍ.. كانت تمشي بينَهم وتراقبُني أثناءَ مِشيَتِها الرّشيقة، لا أعرفُ ماذا أصابَني عندما رأيتُها، كانت عيناها تتحدّثُ لكنّني ما استطعتُ الفهم أبداً.

- هل تعرفها؟.

لا، كان هذا أوّلَ لقاءٍ لنا.

- ماذا فعلت أنت؟.

بقيتُ واقفاً في مكاني.

- وهي ماذا فعلتْ؟.

كانت تقتربُ قليلاً ثم تبتعد، وفجأةً ابتسمَت، كانت ابتسامتها ساحرة، كما وجهها، شعرت للحظة أنّ كل ما فيها يبتسم، الجبين! الخصر، الأقدام، كأنما كل النساء اجتمعن في امرأة واحدة، وفرحن في هذا الاجتماع، كأن الماضي والمستقبل توحّدا عن طريق الحاضر، ثم جاءَت بشجاعةِ خيلٍ يتوجّهُ إلى قمّةِ الجبلِ، وضعَت يدَها على كتفي وهمَسَت: " لا تحزن يا ميّارُ هذه حقيقة الحياة".

- أكملْ.....

سألتُها من أنتِ، ولم تُجب، كرّرتُ السؤالَ أكثرَ حتى قالت: من تريدني أن أكون؟ هيّا تعالَ معي ميّار، يبدو عليكَ التّعب. أمسكَت يدي وأبعدَتني عن ذاك المكانِ المليءِ بالضّجيج، أحضرَت لي ورقةً وقلماً ووضعتهما بجواري وهي تقول: أظنُّكَ ستكتبُني أو تكتبُ لي لهذا أحضرتهما. غابَ وعيي للحظات، في الحقيقة لا أعلمُ كم من الوقتِ غاب.. لكنّني لا أظنُّه وقتاً طويلاً، ثمّ أمسكتُ قلمي وكتبت...

- ماذا كتبت؟.

كتبتُها، وكتبتُ بعدها؛ كانَ هذا يعنيني، ويعني أنّي لازلتُ متألّقاً.

- ثم ماذا؟.

أنهيتُ كتابَتي، ونظرتُ إليها فابتسمَت، اقتربتُ لأمسكَ يدَها، لكنَّ يدي عبرَت يدها فعرفتُ أنها مجرَّدُ أثر، عبرَت جسدي مبتسمةً واختفى الأثر.

- وماذا فعلْت؟.

صرختُ بأعلى صوتي يا إلهي ما هذا، ثمَّ أيقظَني الشّرطيُّ الّذي ظننته جاءَ مواسياً لكنَّه أخبرني أنَّ النّومَ ممنوعٌ في الأماكنِ العامّة.. وجاء بي إلى هنا، معتقلاً إيايَ على ذمّة التّحقيق.

- نعم جاؤوا بك فعلاً لسؤالك عن جريمةٍ حدثت في مكانٍ قريب من مكانِك.. حيث كنتَ نائماً.

عن أيّ جريمةٍ تريدُ سؤالي بالضّبط، إنَّ الحياةَ بحدِّ ذاتِها جريمة.. وقد أجرمتُ كثيراً في حياتي.

- ميّار، لكنَّ اسمك لم يمر عليَّ قبلَ الآن.. وأنا المحقّقُ الوحيدُ في المدينة، فكيفَ تكونُ مجرماً؟.

أنتم تحقّقون في الجرائمِ العاديّة، تسجنون المجرمَ في مثلِ هذه الغرفة مثلاً، أمّا أنا، فجرائمي لم تكن عاديّةً أبداً، ولم تكن عقوبتُها هذه الغرفةَ بل كانَ سجنُها بمساحةٍ تساوي هذا العالمَ أو ربّما أكبرَ بقليل، فهل يعرفُ التّحقيق معنى سجنٍ يساوي مساحةَ العالم.

- ما هي الجرائمُ الّتي ارتكبتَها؟.

مممم، الجرائمُ الّتي ارتكبتُها كثيرةٌ، أحببتُ مثلاً.

- هل الحبُّ جريمةٌ يا ميّار؟.

عندما تستلقي على فراشِ الحبِّ مؤمناً به وواثقاً فيه.. متخليّاً عن حمايتِك الشخصيّة وأسلحَتِك، ظنّاً بأنّك ستعيشُ قصّة ماري (أو مانيا سلادوفسكي) وبيير كوري الّلذين حصلا على جائزةِ نوبل في العلوم كنتيجةٍ لارتباطهما الرّائع، تكون مجرماً..

لأنَّ الحقيقةَ أنّك غالباً ستعيشُ قصّةَ بيرم و ثيبسي، الأسطورةَ البابليّة الشّهيرة التي أنتجت التوتَ الشّاميَّ الأحمرَ كتخليدٍ لقصّةِ حبٍّ انتهى بموتِ حبيبين منعَتهُما تقاليدُ العائلاتِ من الارتباط، أو ربما تواجهُ أحداً مثل أبي ليلى الّذي كان سبباً في بترِ عقلِ قيس ثمَّ وفاة ابنته ليلى حسرةً ثمّ وفاة مجنونِها بجوارِ ضريحها الطّاهر،

ألا تكونُ مجرماً حقّاً عندما تبحثُ عن الحبِّ في قبيلةٍ علَّمت أبنائَها وبناتِها كلَّ شيء إلّا الحبّ؟.

- ربما تكونُ على حقٍّ، لكنّني لا أظنُّ أنّك محقٌّ بتعميمك!.

لستُ أنا الّذي قمتُ بالتّعميم!.

- لكنَّك كنتَ تتحدّثُ معمِّماً!!.

ربما كنتُ كذلك، لكنّني لستُ المسؤولَ عن التّعميم، مسؤوليةُ التّعميم تقعُ على عاتق الّذين زرعوه في عقول الأجيالِ الصّغار، حتى كبروا وأصبحوا جميعَهم يعيشون عليه كأنّه دستورٌ مقدّسٌ لا يُسمَحُ بتجاوزه، أولئك الّذين أخبروهم أنَّ الحبَّ هو ورطةٌ كبيرةٌ، ونحنُ في الشّرقِ مميزون أكثر، لستُ المسؤولَ عن التّعميم يا سيّدي، إذا أردتَ المسؤول عنه فابحث في مكانٍ آخر.

- هل تعرف أين يتواجدون؟.

بالطبع، هل يعقلُ ألّا أعرف، وهل يعقلُ ألّا يعرفَ التّحقيق يا سيّدي؟.

- ليس شأنَك إن كانَ التّحقيقُ يعرفُ أو لا يعرف، أنت هنا تجيبُ على الأسئلة فقط، أما التّحقيقُ لا عليك منهُ فهو يعرفُ كلَّ شيء.

حاضر، سيّدي.

- أخبرني إذا، أين المسؤولُ عن التّعميم؟.

انظر في المدارسِ يا سيّدي، ابحث في المساجدِ والكنائس، اسمع من يقفون على المنابر، تمعّن في الجامعات، اقرأ الكتبَ وانظر في الطّريقةِ ثمّ قارنها بالحياة العمليّة، لا يمكنُ يا سيّدي أن تزرعَ بذرةَ الكرزِ في التّرابِ وتتأمّلَ من الثّمارِ أن تغدوَ رمّاناً، ثم تخرجَ إلى العالمِ معتذراً عن الثّمار الّتي ليسَ بوسعها أن تغدوَ حتى كرزاً يا سيّدي..

لا يمكنُ أن تعلّمَ الطفلَ الطّهارةَ للصّلاة، وتنسى درسَهُ وعملَهُ وصداقَته وحبَّه وتفكيرَه ومعتقداتِه، ثم ترميه للواقع وتتوقّعَ منه أن يكملَ عمرَه بالكامل يُصلّي، لا يمكنُ أن تخبرَه عن جهنّمَ وغضبِ الله والعذاباتِ مهما كنتَ تعلمُ عنها، ثم تتوقّعَ منه أن يكبُرَ عاشقاً للإله، لا تغرَّك الصلاةُ فالكثيرون يصلّون أمامَ العيونِ فقط، الصلاةُ الحقيقيّة يا سيّدي هي صلاةُ القلوب، هذا أيضاً ينطبقُ على الحبِّ، فلا يمكنُ أن تمنعَ الطّفلَ عن الحبِّ خوفاً عليه، ثم تحاربَه أثناءَ مراهقتِه الّتي مررت أنت أيضاً بها وقاموا بمحاربَتك أثنائَها وتتوقّعَ منه أن يكونَ عاشقاً محبّاً حنوناً..

يا سيّدي، القصّةُ ليست قصّةَ إنسانٍ يعتبرُ نفسَه مجرماً لأنّه عانقَ الحبَّ خلالَ لحظةِ تعلّق، القصّةُ قصّةُ جيلٍ مشوّهٍ بالكامل... سيّدي أليس التّحقيق يعرفُ كلَّ شيء؟.

- بالتأكيد، يعرف كلَّ شيء، ولكن أنت تسألُ كثيراً يا ميّار، هذا ليس شأنَك.

بالضّبط هذه الجملةُ الّتي قالَها لي رئيسُ القسم، أنت تسألُ كثيراً، دائماً تقول لماذا، لماذا.

- بماذا أجرمت أيضاً؟.

بالعطاء.

- هل العطاءُ جريمةٌ أيضاً؟.

نعم، بل إنَّه أكبرُ الجرائم ربّما، كيفَ لا أكونُ مُجرماً حين أعطي كلَّ ما أملكُ طوالَ النّهار، وأجلسُ في نهايتِه أداري دمعي على كرسيٍّ من ندمٍ في حديقةِ الوحيدين،

قد ارتكبتُ أكبرَ جريمةٍ في حقِّ نفسي، اليومَ لا أملكُ أصدقاءً فلم يعد لديَّ قدرةٌ على العطاء، من يا تُراه ينقذُني؟.

- ما هي جرائمُك الباقية؟.

إن حياتي كلُّها جريمةٌ، قد أخبرتُك أنّنا لا نعرفُ من أوطانِنا إلّا الخراب، نحنُ الجيلُ الّذي نزلَ السّلالم مسرعاً إلى الدّنيا، وفتحَ بابَ البناءِ بابتسامةٍ مشرقةٍ، فانفجرَت فيه الحياة، ويضحكون علينا، إن أسوأ ما يمكنُ أن تعيشَه يا سيّدي، أن يضحككَ السّابقون والسّابقات، حين تتردّدُ ضحكاتِهم في المسامع، تودُّ أن تسألَهم؛ ماذا فعلتم؟ أين التّاريخُ الّذي تتفاخرون به؟.

- من هي حبيبتُك ميّار؟.

حبيبتي ماريّة يا سيّدي.

- هل لا زلتما على قيدِ التعلّق؟.

لا، كنّا على قيدِ كلِّ شيءٍ، وأصبحنا الآن على قيدِ اللّا شيء، كما أحبَّت ماريّة.

- لماذا أحبَّت؟.

لأنّي لا أملكُ أموالاً كافيةً لعيشِها، ولا أملكُ الجبروتَ لكسرِها، ولا أملكُ قسوةً كافيةً تستطيعُ شدَّها، لأنّي كنتُ طفلاً أكثرَ من كوني رجلاً في حضرتِها.

- من هي ماريّة؟.

هل تريدُ أنْ تعرف من هي ماريّة؟ ماريّة يا سيّدي هي تلك اللقمةُ الكبيرةُ الّتي تناولتُها جائعاً، فنزلَت في مجرى الهواء، وتشنّجَت، هي تلك القطّةُ الّتي نظرَت إليَّ ببراءةِ عينيها العسليتين قبلَ اقتنائها، وعندما اقتنيتُها خدشَت وجهي ويَديَّ، ماريّة يا سيّدي هي كأسُ خمرٍ نادتني ليلاً فشربتُها في نعاسٍ، ثم اكتشفتُ أنَّ خمرَها قد صُنعَ من ماءٍ لا من عنب.

- لماذا أحببتَها إن كانت كذلك؟.

متى كنّا نَسألُ أو نُسأَلُ لماذا، في الحب؟

نحن نحبُّ الأشياءَ الّتي لم نكن نحبُّها، الأشياءَ الّتي لا نتوقّعُها، الأشخاصَ الّذين قلنا لهم أو عنهم؛ لا يمكن، أولئك الّذين ينظرون إلينا نظراتٍ غريبةً في اللّحظات الأولى وننظرُ إليهم باستغراب، وأيضاً الّذين لا يحبُّوننا بصراحة وطلاقة، نحنُ نحبُّ الأماكنَ الّتي لا تلفتُ قلوبَنا في ارتيادها الأول، قطعَ الملابسِ الّتي لم نشتريها، وكذلك المجوهراتِ الّتي لا يمكنُ أنْ نقتنيَها فنتظاهرُ أمامَها باللّا مبالاة، نحنُ نحبُّ مقاطعَ الموسيقى الّتي تُبكينا، الجديدَ حتى لو كان محضَ أوهامٍ أو خيالات..

فمتى كنا نَسأل أو نُسأل لماذا، في الحب؟

يا سيّدي، الحبُّ كالأديان، هل نسألُ القرآن أو الإنجيلَ لماذا؟ الحبُّ كالإله، هل نسأل السماء "لماذا"؟ هل نسألُ "لماذا الموت"؟ الحبُّ كالبحر، تشعرُ بالرّاحةِ عندما تجلسُ أمامَه متأمّلاً دون أن تهمسَ بأيّةِ كلمة، ثمَّ تخلعُ عنكَ ثيابَك وتمشي إليه..

تقفُ عندما تلامسُ الماءُ قدميك، تعودُ للمشي، كلّما زادَ منسوبُ المياه تقفُ قليلاً وتعودُ للمشي، حتى يغمرَك بالكاملِ فتسحبَ أقدامَك من الأرض ويبدأ هو باستدراجِك أكثرَ فأكثر، ثمَّ تنظرُ حولَك ولا تجدُ أحداً هناك، فتغرقُ بصراخٍ لا يُسمع..

ربما لأنّها تشنّجَت، أحببتُها، أي أنّها لم تمرَّ مرورَ العابرين.. ربما لأنّها جَرحَت، ربّما لأنّها خَدعَت.. ولا أستطيعُ التخلّي عن كلمةِ "ربّما" أبداً، فالحبُّ هو الشّيءُ الوحيدُ الّذي لا يمكنُ أن يكونّ له سببٌ، وإن كان سبباً فلا يمكنُ لأحدٍ شرحُ أسبابِه...

عندما تسألُني؛ لماذا أحببت؟ تكونُ وكأنّكَ تسألُني؛ لماذا وُلدت؟ لماذا تعيشُ الحياةَ؟ لماذا تأكلُ وتشربُ وتنام؟ فكيف أجيبك؟ فليختر التّحقيقُ ما يشاء من الإجابات، فإنَّ إجابتي ستكونُ كما يريدُها التّحقيق.

- كيف كنتما معاً؟.

كنّا كقطرتي عرقٍ متجاورتين على جبين زمانٍ متعَب، كنّا كعنوانِ قصيدةٍ مؤلَّفٍ من كلمتين يثيرُ فضولَ الجميع ودهشَتهم، ننامُ على عشقٍ ونصحو على آخر، كنّا كقنبلتين عندما تلاقَتا نسيَتا عهدَ الانفجارِ تماماً ومالَ قلباهما نحو السّلام، وإذا كانَ التّحقيقُ مُهتمّاً، فإنّنا نكونُ كما يُريدنا التحقيق.

- وكيف أصبحتما؟.

أصبحنا حبّةً واحدةً بعدما سقطت الأُخرى، أصبحنا عنوانَ قصيدةٍ كُتبَ نصفُه فوقَها ونُسيَ نصفُه الآخر..

أصبحنا ننامُ على عشقٍ ونصحو على هجران، أصبحنا قنبلةً واحدةً يتيمةً بعدما اختارت الأُخرى الوفاءَ بعهدها، وإذا كان التّحقيق مُهتمّاً، فإنّنا نصبحُ كما يُريدُنا التّحقيق.

- لِمَ كلُّ هذا التّناقض ميّار، ما الّذي جرى؟.

هكذا هي الحياة، مجموعةٌ من المتناقضات نتفاعلُ معَها بتناقضٍ، نعيشُها بتزامنٍ، نمضي معَها، وتمضي معَنا، نكبرُ كلّما زادَ عددُ الأيّامِ الّتي نقضيها على قيد التناقض، أو ما يسمّى بالتناقض، ولكن هذا ليسَ تناقضاً، إنّما هو الفرقُ بينَ البداية والنّهاية، الفرقُ بين الحقيقةِ والخيال، بينَ الصّغار والكبار دونَ أدنى اهتمامٍ بالعمر، هناك قلوبٌ كبيرةٌ يا سيّدي عندما تهواكَ تفتحُ لك أبوابَ الدّنيا والآخرة على مصراعيها، تجعلُك تقفزُ لأمتارٍ كثيرة فرَحاً منتصِراً حتى على الجاذبية، تضعُ تأشيرةَ الدّخولِ للأملِ فيدخلُ عقلَك يغيّرُ شكلَ الأيّام، وبعضُ القلوب تفتحُ لك بابَ الشّمس لتصافحَك على عجلٍ منها، فتلهِبُ يدك وتمضي.

- هل يُعقل أن تعيشَ تلك النّهايةَ وحدك؟.

أخبرتك قبلَ الآن، أنّي لم أكن لوحدي، أنا لا أبقى لوحدي أبداً، ولا أفعلُ أيَّ شيءٍ لوحدي، كنتُ أنا والضّياعُ معاً، والألمُ يحضِرُ أسرّةَ النّومِ ويعتني بالملابس الّتي أرادَ الكبرياءُ إتلافَها، والأمنياتُ تعيشُ معنا، تنامُ في حقائبِ السّفرِ، كنتُ أنا و اسمي رفيقاً أبديّاً اختارَه غيري، لكنّه بقيَ لي وفياً، وألقابي أصدقاءٌ اكتسبتُهم أثناءَ الحياة، كنتُ أنا والنجومُ تؤازرُني، واللّيلُ أسقطَ أهلَه عمداً وسقطَ عليّ يَجمعُني، كنتُ أنا والدّمعُ على الخدّين، أثرُ قُبلة لا يمحوها الزّمان، والله معي في مكاني، يسلو الرُّوح، يضمّدُ بالرّحمة الفؤادَ..

وثلاثُ ماساتٍ كانت في الجوار، إحداهنّ تطعمُني، إحداهن تشجّعُني، والثالثة تضمُّني حتى أغفوَ، والسّكينةُ على أكتافي نزلَت، هبةٌ من الله ألّا تجزعَ أيّها القلبُ فلا خوفٌ عليك مهما هم يفعلون، لكن هل جاءَ التّحقيقُ بي إلى هنا يا سيدي، ليسألَني عن حياتي؟.

- ميّار، ماذا يمكن للحب أن يفعل؟.

الحبُّ وحدَه القادرُ على فعلِ كلِّ شيءٍ..

يا سيّدي إنّما السّماءُ تبتسمُ عندما تشاهدُ تدفّقَهُ من القلوبِ والأفواه فكيف لا يَقوى على كلِّ شيء، لكن يبقى هذا وصفاً عامّاً، فالحبُّ درجات تزدادُ قدراتُه مع ازدياد صعودِه.

- هل يمكنُ أن تغتالَ حبيبةً، أو تخطفَها مثلاً؟ هل يمكنُ أن تقومَ بأفعالٍ لا تتقبَّلُها العقولُ يا ميّار؟.

أشعرُ بالغرابة تجاه سؤالٍ كهذا يا سيّدي.

- أجبني أوّلاً ثمّ أخبرك لماذا جاءَ بك التّحقيقُ إلى هنا.

في إطارِ الأفعال الّتي لا تُقبَل، فإنَّ الحبَّ بحدِّ ذاتِه وصفاته لا يُعتبَرُ مقبولاً لدى الكثيرِ من القلوبِ الّتي لا تعرفُه ولم تعشه في السّابقات من الأيّام، أو فقدَت القناعةَ والثّقةَ فيه فأصبحَت تصفُه بالتّفاهة، ممّا أدّى لشرخٍ عظيمٍ بين الأجيال غيرِ المتلاحقة تماماً، هذا أحدُ الأجزاء الّتي نعيشُها نحن مع آبائهم، أما الاغتيال أو الخطفُ فهذا يعودُ للنّفوذ، من لديهمُ القدرةُ على الوصولِ إلى ذلك، يصلون إليه ويفعلونَه..

يمكن للحبِّ أن يكونَ دافعاً لذلك، وبعضُ القلوبِ يتحوّلُ حبُّها لقسوة، بعضُها يقودُها الغضبُ فتتسرَّع، بعضُها يكونُ الحرمانُ دافعاً له فتجرؤ، نظريّاً الحبُّ سلاحُ دمارٍ شاملٌ تُحاسبُنا عليه الأيّامُ، وتُلقى العقوباتُ فيه على الأعمارِ، كلُّ هذه الحالاتِ وغيرُها، تبريرُها الأساسيُّ هو الحبُّ.

- جميلٌ هذا الكلام، أرحتَ قلبي، ميّار أودُّ سؤالَك عن شيءٍ آخرَ من بابِ الفضولِ فقط، لا شأنَ للتّحقيق في سؤالي هذا، فهل تسمحُ لي؟.

عفواً، سيّدي المحقّقُ بالطبع، ولكن كيفَ أرحتُ قلبَك لم أفهم؟.

- لا شيء، لا تهتم، أردتُ التّأكدَ من أمرٍ جالَ في خاطري، سؤالي هو لو أنّني جمعتُك بماريّة الآن فماذا ستقولُ لها، أو لو اعتبرتَ ماريّة هي أنا ماذا ستقولُ لي، أو لو طُلبَ منك أن تكتبَ رسالةً أوصلُها شخصيّاً لماريّة ماذا تودُّ أن أقولَ لها؟.

ماذا سأقول؟ رسالةٌ لماريّة!! مممم قل لها إذاً:

كنت أتوقُ لحملِها كما يُحمَلُ النّدى، رجوت الله أن يعطيَني فرصةً ويعطيَها قُدرةَ التّحول إلى النّدى، قل لها أنّها حبّلَتني بالفرح، فكنتُ أوّلَ رجلٍ يحبَلُ ويَلد حياةً كثيرةً كالصدى..

ثمّ في الهشيم وضعَتْني، فأصبحتُ أوّلَ يتيمٍ وُجدَ بلا كواليسَ من رجلٍ وامرأةٍ ومدى..

واسألُها ما القولُ في امرأةٍ رَهَوَتْ البحرَ.. بعد أن عبرتْ الفؤاد، وتركت العشقَ في سبيلِ الرُّؤى؟ هل يصمتُ الحرفُ ويُترَك، هل يُطلَبُ العشقُ ويباعُ، وينقلبُ الخبرُ العزيزُ خريفاً وكفى؟

أخبرها أنّني وددتُ لو أزرعُ الياسمينَ لها، وأنسى الوداع بها، ولازلتُ أودُّ لو أنّها تعودُ ها هُنا.. لنجلسَ بجانبِ بحيرةٍ دمشقيّةٍ صغيرة، أتأمَّلُها، ولا أتوقّعُ أن هناك شيئاً قد خفيَ.. اسألْها هل نعود؟ ويعودُ فستانُها الأسودُ المدلّلُ ويعودُ الوتين المتألّقُ يُزهرُ حيثما بدأ..

أخبرها أنّني كنتُ أنظرُ وكنتُ أرى، وبعدَها أصبحتُ أنظرُ وقد أصابَ العينَ عَمَى، فأين العيبُ حدّثني يا سيّدي، في العشقِ؟ أم أنَّه في عاشقٍ أمسى بعدَ الفراقِ أبْكما؟

قل لها، ألّا تُكثرَ في القتلِ، إن القتلَ يُحييني، ولستُ أودُّ العَودَ في سواها مُغرَما.. فإن هي سمعَت فلترجع إليَّ.. إني سارحٌ فيها، وفي هجرِها وما الحياة إلّا هُما..

وإنّي أستحضرُها وهواها يُلاعبُني، وإنّي أفتقدُها، والفقدان من الموتِ أعظما، هيَ غائبتي، والغيابُ فجيعة! فهل أراها في غدٍ؟ ويعودُ القلبُ على غيرِها محرَّما، قد أصبحَ الشّغفُ في شِغافي وباقي أغشيتي صبابةً، والشّوقُ في أضلعي قد أجرمَا، قل لها أنّني اشتقتها، وستبقى ذكراها كما المقل، في اللّيل المعتم أنجما...

أخبرها أنَّ لعينَيها حضورٌ آخرُ يا سيّدي، يأكلُ كلَّ شيءٍ يَحطُّ البصرُ عليه، ويُحدِثُ حادثَ عشقٍ في القلب، وأنّني هناك حيثُ جلسَتْ، حيثُ نظَرَت، سأتلو فَمَها ككتابٍ مقدّسٍ آمنتُ به بعد الإيمان..

أخبرها أيضاً أنّني كنتُ نبياً نزلَ الوحيُ عليَّ بها، ثم غاب، فجرّبتُ نحتَها لوحةً دمشقيةً مُدلَّلة وغفوتُ بفستانِها الأسودِ المذكورِ زمناً طويلاً لعلّي أبلغُه..

أخبرها أنّها كانت ذاتَ فضلٍ كبير، إن أنا دخلت الجنّة فالتفكيرُ بها عِبادة، وتخيُّلها عِبادة، والتّحديقُ بوجهِها صلاةٌ، وللمساءِ في حضرتِها أثرٌ كأثرِ الزّكاة..

أخبرها أنّني أحببتُها جدّاً، أحببتُها هنا على هذه الأرض ولأجلِها أحببتُ الأرضَ كلَّها، أخبرها أنّها كانت لي، خطوةً أخرى في الطّريق إلى الموت، نحن موتى وغداً هي أيضاً ميتة، وهناك نلتقي!!! ثم أعطِها هذه الورقة.

- ماذا تحتوي هذه الورقة؟.

جملة واحدة فقط يا سيّدي.

- ماهي؟.

أحببتكِ في دمشق.

- أحببتَها في دمشق، جميلةٌ هذه الرّسالة، سيوصلُها التحقيقُ بالتأكيد يا ميّار، متى كتبت هذه الجملة؟.

في إحدى ليالي الحب، التي شهدتْ عليها دمشق وشاهدتها.

- ميّار.. بالنسبة لِما يستطيعُ الحبُّ فعلَه فقد صدَقتْ، أحياناً يكونُ الحبُّ هو الدّافعَ، وأحياناً يكونُ أداةَ الجريمة، فيجعلُ قلوبَنا أيضاً مجرمةً،

أمّا وجودُك هنا، فهو حقّاً سببُه الجريمةُ، أحدهم أخبرَنا بوجودِ الجريمة، والإحداثيات الّتي تلقّيناها كانت تدلُّ على المكان الّذي تواجدتَ فيه أنت،

لذلك أنتَ المتّهمُ الوحيدُ من وجهةِ نظرِ التّحقيق، وخاصّةً أنَّ التّحقيقَ أخذَ مجرياتِه في المحيطِ قبلَ الوصولِ إليك، فكلُّ الأدلّةِ والبراهينِ الّتي اكتشفتْ تشيرُ إليك، بصماتُك واضحةٌ في كلِّ مكان، حتى الأداة، إن كان التّحقيق متعاطفاً معك فليس بوسعه إخفاءُ الحقيقة، لأنَّ الحقيقةَ أساسُ إيجاده والغذاء، ولا يأخذُ دوافعَك بعين الاعتبار مهما كانت إلّا عندما تكونُ في حالة الدّفاع عن النّفس، مهما كانت دوافعُك ستبقى أنت المتّهم، وحين يُثبِتُ التّحقيقُ تورّطَك في الجريمة لا بدَّ أن تُحاسَبَ، لا شيءَ يمضي هنا بلا حساب.

ولكن يا سيدي.

- دعني أكمل.....

لقد قمنا أيضاً باستجواب ماريّة ومن خلالِ الاستجواب فهمنا تلك الأحداثَ الّتي ساقت إلى الجريمة، يظنُّ التّحقيق أنّها شريكةٌ عظيمةٌ لك ولكن فقط في الجريمة...

الحبُّ كان دافعَكَ حقّاً، وبدافعِ الحبِّ جعلت قلبَك الأداة، سلّمتَ الأداة بنفسك إلى ماريّة، ثم فتحتَ صدرك لها، ماريّة الّتي لم تحبّك أبداً ولم تكن تريدُك إلّا وسيلةً تقومُ باستعمالها ليمضيَ الوقتُ بها إلى المكان الّذي ترسمُه أو تنتَظِره هيَ، ماريّة الّتي انتشلتك من بين تلك النهود - كما تمنيتْ-، لم تقم بانتشالك حبّاً فيك بل ليلمعَ نجمُها فتخطفَ الأضواء....

ماذا كنتَ تتوقّعُ منها، والأداةُ في يدها، وصدرُك مفتوحٌ لها، والخبرُ يخبرُها أن تفعلَ ما تشاء، فلم تكذِّب الخبرَ وفعلتْ حقّاً ما تشاء، ربّما تكون ماريّةُ هي القاتلَ، لكن لماذا وكيف ومتى؟؟

الحقيقة يا ميّار أنّك أنت من قامَ بتسليمِ الأداةِ ثمّ الاستسلامِ لها، فأصبحتَ أنت المجرمَ الجانيَ والمجنيَّ عليه معاً، لماذا يا ميّار أحببتها هكذا؟ لماذا تخلّيت عن دمشقَ، وعن الأصدقاء؟ لماذا فعلتَ بنفسك كلَّ هذا يا ميّار؟ إن كنتَ تملكُ المبرّرَ فأخبرني، وقبلَ أن تخبرَني اسمع صوتيَ جيداً..

- هل تسمعُني ميّار؟.

نعم، سيّدي أسمعك.

- أحبّكَ جداً.

مانيسا!!.

- نعم يا ميّار، أنا أيضاً أحببتُكَ في دمشق.....

نعم، مانيسا الّتي أحبّتك كثيراً، لكنّها لم تستطع خيانةَ صديقَتها، أنا التّحقيقُ كلُّه يا ميّار، التّحقيقُ الّذي يعلمُ كلَّ شيء، مانيسا الّتي شاهدَتك كيفَ تحاربُ كي لا تتخلّى ولا تخون، فأعجبَت بك ودخلتَ قلبها، مانيسا الّتي شاهدت ماريّة تحارب أيضاً ولكن كي تتخلّى، وباعتباري في مكانٍ رائعٍ لدى ماريّة استطعتُ مراقبتكما عن كثبٍ، كنتَ بعيداً لكنّني استطعتُ الوصول إليك عبر ماريّة، وبدافع الحبِّ يا ميّار جئتُ بك إلى هنا، وبمساعدةِ أصدقائك، لم يكن لديَّ خيارٌ آخرُ، لم نعد نلتقي في العمل بعدَ استقالتِك منه....

افتحوا له عينيه.

لم أكن أصدق ما أسمع، والآن لا أصدق ما أرى.

- ماذا تشعر؟.

هل أشعرُ يا مانيسا، ربّما لا أستطيعُ الوصفَ، وربّما أشعرُ بما أشعرُ، كيفَ استطعتِ فعلَ كلِّ هذا؟.

- أنت تعرف عائلتي، وتعرفُ من أكون، ولم أكن وحدي في كلِّ هذا.

من كان معكِ؟.

- أصدقاؤك يا ميّار، هيلانة، سوزدار، أوريت، تيم، نغم، وميمونة، وأيضاً الحبُّ، هل تظننا نتركك وحيداً، وقد كنتَ الملجأ والكتف لنا، أتينا جميعاً إليك نخبرُك أنَّ الحياةَ لا يمكنُ أن تنتهيَ على يد ماريّة، لأنّها لم تبدأ على يدها، هيّا نذهب إليها، نخبرها أنَّك أحببتها في دمشق، وأني أحببتك في دمشق، وسأسعى لتحبّني أيضاً.

لكن كيف تغيّر صوتكِ؟.

- كنّا نستخدمُ أجهزةَ تغيير الصّوتِ، وكي لا تسألَ كثيراً سأخبرك أنّني وصلتُ لصديقِ أبي وأخبرتُه عنك، فقام بمساعدتي لنأتيَ بك إلى هنا، هيّا نذهب يا ميّار إن الأصدقاءَ في انتظارنا منذ زمن.

هيّا مانيسا، لقد اشتقتُ لهم كثيراً، قبلَ أن تأتوا بي إلى هنا كانَ قد مرّ زمنٌ طويلٌ لم أرهم فيه.

- لكنّنا كنّا نراك جميعاً، بل كنّا نعيشُ معكَ الألم، ألم تكن تخبرُنا أنّنا أصدقاء لأجل هذا؟ كنّا جميعاً نتألّم، لم يفرّقنا أيُّ شيء، لا الأديانُ ولا الانتماء، كنّا كلُّنا نبحثُ معاً عن طريقة نستطيعُ إخراجَك ممّا أنتَ فيه، لك ما تفعلُ يا ميّار وهذا ما كنتَ تفعله، كم بكينا معاً، كم شتمنا الحياة معاً، كم سعَينا معاً، وكم لبستَ أثوابَ الحزن لأجلِ الغير، نجحنا وفشلنا معاً، حتّى عندما كانت ماريّة، كنّا نشعرُ بذلك، رغمَ أنّي صديقةُ ماريّة أكثر، لكن عندما كنّا نجتمع معاً كنتُ أسمعُ عنك تلك الأحاديث.

الحمد لله الذي جعلني إنساناً يا ماني.

- اصعد هنا.

لمن هذه السيارة؟.

- إنها سيارتي الجديدة، هيّا اصعد لنكمل الحديث...